تعليم الكبار والتغير الحضارى

منظور إسلامى

مقدمة :

لعل أجلى مظاهر التغير فى عصرنا الحاضر وأكثرها دلالة وقوة هو مفهوم التغير نفسه، فبعد أن كان وجوده دليل خلل وفساد ،أصبح هذا الوجود دليل صحة وسلامة ، وبعد أن كان هذا الوجود بالتالى يثير القلق والتشاؤم أصبح يبث الطمأنينة والتفاؤل. كان كذلك حيث تحكم فى الإنسان محولا إياه ريشة فى مهب الريح، وأصبح هكذا اليوم حيث تحكم فيه الإنسان ليصبح طاقة تقدم وأداة فاعلية وطريقا للتطور والتجديد .

كانت المعرفة الحقة فى الفكر الفلسفى اليونانى القديم الذى يعد النبع الأساسى لكل الفلسفات الغربية فى العصور الوسطى والحديثة وأثر إلى حد ما فى نظرات بعض فلاسفة المسلمين ، هى تلك المعرفة التى تتعلق بما هو " ثابت " لا ما هو " متغير "، على أساس أن الثبات دليل الكمال ، وأن التغير دليل نقص ، ومن هنا فقد كانت " المثل " عند أفلاطون هى موضوع المعرفة الحقة ، وهى وحدها التى يحصل عنها الإنسان العارف على " اليقين " المنشود الذى تستقر عنده نفس الإنسان ويطمئن، وكانت تلك المثل هى " ماهيات " الأشياء أو " جواهرها "، وهى لا يتم الوصول إليها إلاّ بكشف الحجب عن ستار المحسوسات بعمليات متصاعدة من التجريد العقلى، أما هذه المظاهر التى نراها بأعيننا ونلمسها بأيدينا ونشمها بأنوفنا ونسمعها بآذاننا ونتذوقها بألسنتنا فهى (عوارض) زائلة ، وإن كان لها من فائدة ، فلإنها فقط " معبر " نعبر عليه من عالم المتغير الذى يحيط به الظن والشك إلى عالم الثبات من الماهيات ذات اليقين .

وعلى نفس المنوال سار أرسطو فى النظر إلى الأشياء من خلال أنـواع ثابتة لا يتحول أحدها إلى الآخر ، تتبدى فى مجموعة " تصورات " تسكن العقل ، بعد أن يغوص فى عالم الحس ليصل – بعد تجاوزه – إلى هذه " الجـواهر " المكنونة ! وبعد مسيرة بحث وتفكير ودراسة استغرقت عشرات القـرون ، إذا بالفكر الإنسانى يكشف عن أن الحقيقة التى أضناه البحث عنها إنما تكمن فـى هذا التغير، وأن غاية ما هو مطلوب منه هى أن يرصده بأقصى ما يستطيع من دقة أجهزة وأدوات الرصد والتسجيل وأن يُعمل عقله فى البـصر بمـا بـين التغيرات من علاقات، وأن يجتهد فى أن يختزل كل ذلك فى قوانين ونظريـات تتيح له أن يتنبأ ويتحكم فلا يصبح الماء الذى أمامه راكدا تهب منه رائحة العفن ، وإنما يصبح ذا حركة وتدفق متحولا إلى طاقة تبعث النـور علـى طريـق الحاضر سعيا نحو مستقبل مضبوط .

وإذا كان من المفاهيم المغلوطة التى أشاعتها فلسفات الثبات قديما أن جهد التعليم الحق هو الذى يبدأ مع بداية الوعى والإدراك ووصول النـضج العقلـى درجة تمكن الإنسان من الفهم والاستيعاب فى سنوات الطفولة ، فـإن فلـسفة التغير المعاصرة قد أكدت على أن عملية التعلم قرينة الحياة ، وبالتالى فهى تبدأ من البدء عند ميلاد الإنسان ولا تتوقف بالنسبة إليه إلا عندما ينتقل إلى رحمـة الله ، مما تلخصه المقولة المنسوبة إلى الموروث التربوى الإسلامى بأن العلـم يطلب من المهد إلى اللحد، وبالتالى فإذا كان " تعليم الصغار " واجبا محتوما ، فإن " تعليم الكبار " أيضا واجب محتوم على كل أمة تبتغى نهضة وعلى كـل دولة تسعى إلى تقدم .

والإسلام فى كل توجيهاته وعباداته وتشريعاته ، إذ يسعى لخير النـاس ومصلحة العباد فلأن هذا يعد نتيجة منطقية لحقيقة أن الله هو " رب العـالمين " وهو " غنى عن العالمين " .

فلأنه (رب العالمين) اتجه بالتطوير والإصلاح والتعمير إلى أمم العالم دون تفرقة بين أبيض وأسود ، بين غنى وفقير ، بين ذكر وأنثى .

ولأنه (غنى عن العالمين) فقد أراد بهذا الخير المتدفق على ظهر الأرض والكامن فى باطنها ، والسائر فى السموات العلا ، مصلحة الإنسان نفسه .

ومن هنا كان طبيعيا أيضا أن يعين الإسلام الإنسان على تقبل التغير وأن يحثه على فهمه ، وأن يطالبه بالتحكم فيه ، وأن يشدد على أن الطريق إلى هذا وذاك إنما هو " بعلم " لا يرتبط بمرحلة عمرية بعينها وإنما بعلم يمتد بامتداد الحياة .

مفهوم التغير الحضارى :

إذا كان كل من أفلاطون وأرسطو قد قالا ما قالاه من حيث تأكيد فلسفة " الثبات " ونبذ فلسفة التغير، وإذا كانت آراؤهما هى التى تسيدت قرونا عدة وأثرت على عشرات المفكرين ، فإن عصرهما نفسه قد شهد صيحة هامة تذهب إلى أن " التغير " هو حقيقة الكون الذى نعيش فيه ، لكن هذه الصيحة ذهبت أدراج الرياح ولم ينتبه إليها أحد بالدرجة التى تستحقها إلا – ربما – فى القرن العشرين .

إنها صيحة " هراقليطس " عند ذهب إلى أنك لا تستطيع أن تنزل النهر الواحد مرتين ، لأن مياهه متغيرة باستمرار .

فالتغير هنا يشير إلى انتقال من حال إلى حال آخر ومن وضع إلى آخر وهذا المعنى لا يكاد يبعد كثيرا عن معنى التغير وحقيقته ، ذلك المعنى الذى عبرت عنه أيضا تلك المقولة الشائعة : " دوام الحال من المحال "، تلك المقولة

التى عبرت أصدق تعبير عن قضيتنا دون فلسفة ، فكأنها من نوع تلك البديهيات ، التى تحمل من الوضوح الذاتى ما يجعلها بغير حاجة إلى أن نسوق البراهين على صحتها .

ولا نظن أن " التغير " من المفاهيم التى تستحق أن نقف عندها طـــويلا شارحين "معناها" فهى أشبه " بالكهرباء " التى تحتاج معرفتهـــا إلـــى معرفـــة جوانبها وآثارها أكثر مما يتطلبه الأمر من حيث التعرف على " معناها " .

ومن هنا فليست القضية قضية معنى التغير ، بقدر ما هى قضية " مجال " التغير و"نوعه" و " مداه " و "آثاره " و " أبعاده " ، وهى المسائل التى نرجـــو أن تتضح بقدر الطاقة من خلال صفحات هذه الدراسة .

وإذا كان مفهوم " التغير " لا يحتاج إلى وقفة حيث هناك ما يشبه الاتفاق عليه والتسايم به فى عصرنا الحاضر إلا أن الموقف يختلف بالنسبة إلى نفـــس المفهوم عندما نلحق به هذه الصفة فنقول " تغير حضارى "، ذلـــك أن مفهـــوم الحضارة واحد من تلك المفاهيم التى يكثر عندها الجدل والاختلاف . ومع تعدد المفاهيم الخاصة بالحضارة إلا أننا يمكن أن نصنفها فى فئات أربع تتلخص فيما يلى : [1]

أ- مذهب ينظر إلى الثقافة Culture والحضارة Civilization على أنهما مفهومان مترادفان .

ب- مذهب آخر يفهم الحضارة بمعنى الثقافة عندما تتميز الأخيرة بدرجة أعظم من التعقيد وبعدد كبير من الخصائص المميزة .

ج- مذهب ثالث ينظر إلى الحضارة على أنها الثقافة حين تتميز الأخيرة بعناصر وخصائص متقدمة نوعيا ، وممكنة القياس ببعض معايير التقدم .

د- مذهب رابع يعارض الحضارة بالثقافة على اعتبار أن " الثقافة " ترمز إلى تلك الأفكار والابتكارات الإنسانية المتعلقة بالأساطير Mythology و " الدين " و " الفن " و"الأدب" ، على حين أن " الحضارة " هى مجال الابتكارات الإنسانية المتعلقة بالعلوم والتكنولوجيا .

والحضارة فى اللغة هى الإقامة فى الحضر والحضرة والحاضرة ، والحضارة بكسر الحاء وبفتحها أحيانا ، هى خلاف البادية .. وتبدى الحضرى ، أقام فى البادية ، وتحضر البدوى أقام فى الحاضرة [٢]. والمدر كالحضر ، ومدرة الرجل قريته وبلدته ، وبنو مَدراء هم أهل الحضر [٣] .

فالحضارة فى اللغة تدل على نوع خاص من الحياة ، هو الاستقرار والإقامة الدائمة ، وليس ضروريا أن يكون ذلك الاستقرار فى مدينة ، بل إن الاستقرار نشأ تاريخيا فى قرى صغيرة ، ثم تطورت القرى بعد ذلك واتسعت ، وجاءت نشأة المدن متأخرة ، سواء منها القديمة أو الحديثة .

ومن المصطلحات التى تختلط بالحضارة (المدنية)، والمدنية هى فى العربية مصدر صناعى من المدينة ، ومدن المدائن مصرها ، والنسبة للإنسان مدنى ، وللطائر والحيوان مدينى [٤] .

ومن رأى أحد المفكرين العرب المحدثين [٥] أن تكون المدنية كما هى فى الاستعمال إلى حد ما ترجمة لكلمة Civilization التى تدل على مرتبة من مراتب الحضارة ، أو على صورة من صورها ، فهى تعنى مظاهر التقدم التكنولوجى والآلى . وبمعنى آخر فمفكرنا يذهب إلى أن المدنية هى تلك الظواهر القائمة على أسس موضوعية من المعرفة اليقينية ، أو على افتراضات كونية فيما هو خارج عن نطاق الفكر البشرى والمنطق الإنسانى ، فالتطبيقات العلمية الرياضية الصالحة فى كل زمان ومكان هى مدنية .

والحق أنه قد يكون من الصعب مناقشة مختلف الاتجاهات والمفاهيم المتصلة بالحضارة فى الحيز الحالى خاصة وان الاختلاف فى المفاهيم والمصطلحات أمر وارد وشائع فى العلوم الاجتماعية ، وبالتالى فقد يمكن لنا أن نثبت للقارئ المعنى الذى سنتعامل به فى الدراسة الحالية ، دون أن نزعم أنه الحق الذى يدحض كافة وجهات النظر الأخرى، أما هذا المعنى الذى نرتضيه فهو الذى يذهب إلى أن " الثقافة " إذا كانت هذا الكل المركب المعقد من المكتسبات البشرية ، المادية والمعنوية ، خلال تفاعل الإنسان مع غيره من بنى البشر ومع مظاهر الكون المختلفة ، فإن (الحضارة) هى ذلك المستوى المتقدم من هذا المركب المكتسب والذى تنتظمه ملامح فلسفة عامة وتميزه خصائص بعينها ويشكل (علامة) على طريق التطور البشرى تضيف إليه وتدفعه إلى أمام .

أبعاد التغير الحضارى :

للتغير الحضارى أبعاد متعددة ، ربما يؤدى استجلاؤها إلى مزيد من الوضوح لمفهومه ومزيد من الوعى بفاعليته .

وتتراوح هذه الأبعاد بين :

- بعد (الإنسان) الذى هو (منتج) التغير ، وهو فى نفس الوقت (مستهلكه) .

- وبعد (المجتمع) الذى يتيح بمناخه وبتفاعلاته وتوليده للحاجات الفرصة للإنسان كى ينتج ويستهلك .

- وبعد (الكون) الذى يمثل (المسرح) كما يمثل نبع (المادة الخام) و (الطاقة) للتغير ، فضلا عما به من سنن التغير وتحكمه

- بعد (الأيديولوجيا) أو (العقيدة) التى (تؤطر) الحركة وتحكم الفعل وتوجه المسار.

- وبعد (المعرفة) التى هى المصابيح الكاشفة والعقل المفكر للتغير .

- وبعد (الزمان) الذى يحكم (بالتراكم) مسار التقدم أو التخلف فى التغير الحضارى.

ويمكن اختزال هذه الأبعاد الستة إلى فئات ثلاث :

١- أبعاد انسانية واجتماعية :

فلقد سبق لنا القول بأن الحضارة " مكتسب بشرى " مما يشير إلى طبيعتها الإنسانية ، فإذا كان الله جلت قدرته قد خلق (الإنسان) ، كما خلق (الكون) الذى يعيش فيه الإنسان ، فإنه كذلك قد خلق فى هذا الإنسان من القدرات والمهارات ما يمكنه أن يستخرج ويستثمر ما أودعه الله فى الكون من ثروات ليخلق بالتفاعل بين هذا وذاك مظاهر الحضارة المختلفة .

من أجل هذا كان لنا أن نؤكد تلك الحقيقة التى تشير إلى انفراد الإنسان بصنع الحضارة، بحيث إذا صح القول بأن الإنسان هو (الكائن العاقل) أو أن الإنسان (مدنى) بطبعه ، فإن ما هو أكثر دلالة من هذا وذاك أن نقول أن الإنسان هو الكائن الذى صنع ويصنع حضارة ، لأن هذه العملية نفسها تتضمن ضرورة وجود (العقل) وحتمية أن يتم هذا فى (جماعة) .

كذلك فإننا نستطيع القول بأن الإنسان إذا كان هو صانع الحضارة ، فإن الحضارة نفسها هى التى تجعل الإنسان إنسانا ، ذلك أن الإنسان لا يكون إنسانا بمجرد الوجود البيولوجى المحدد فى شكل معين وبوظائف خاصة وإنما يكون كذلك بما يبتكره من أنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية ، وبما يتحدث به من

لغات ولهجات وأساليب بيانية، وبما يتوجه به من قيم وعادات وتقاليد، وبما ييسر به كسب الرزق من أجهزة ومعدات .. إلى غير هذا وذاك من مظاهر الحضارة .

وإذا كانت الحضارة إنسانية (المنشأ) فلابد وأن تكون كذلك إنسانية (المنتهى) بمعنى أن تستهدف خير هذا الإنسان الصانع واستقراره وطمأنينته .

إننا أحيانا ما نسمع ونقرأ فى السنوات الأخيرة أن الحضارة الغربية الحديثة مثلا قد أفقدت الإنسان إنسانيته ، ولا يعنى هذا نقض القاعدة التى نتحدث عنها وإنما هى صيحة تحذير وعملية دق ناقوس الخطر بأن مسار الحضارة قد بدأ ينحرف عن أن يجئ بالسعادة والخير للإنسان نتيجة انحراف فى المفاهيم المتعلقة بحقيقة ما يشكل خيرا حقيقيا للإنسان ، وما يشبع السعادة الفعلية .

وغنى عن البيان أننا عندما نشير إلى الإنسان هنا ، لا نعنى الإنسان (بصفته فردا) على الإطلاق ، فمن المؤكد أن الإنسان الفرد المنعزل من شأنه أن يعجز عن أن ينتج حضارة ، فالحضارة إنما هى (إجابة) أو مجموعة " إجابات " و (حلول) لمشكلات تنشأ نتيجة التفاعل الاجتماعى ومسيرة العمل الجماعى .

ونظرة واحدة إلى مظهر واحد من ملايين المظاهر الحضارية تؤكد هذه الحقيقة ، فوسيلة المواصلات قديما آلتي كانت تعتمد على الدواب ، كانت ذات سمة فردية ، لكن وسائل المواصلات المتطورة فإننا نلاحظ أنها لا هى فردية المنشأ والصنع ولا هى فردية الغاية والمنتهى، فهى ابتكار لتيسير سبل الاتصال وهى اختراع انسانى لتسريع التفاعل الإجتماعى .

٢- الأبعاد المكانية والزمانية :

فالأرض بما تحمل من معادن يصعب حصرها ، يستخرجها الإنسان ويسخرها ليصنع منها الطاقات المحركة والأجهزة العاملة، وهى التى يستنبت فيها مختلف الزروع ليأكل منها فيستطيع الاستمرار فى الحياة ، وينمو هو وما يعتمد عليه من حيوان ، وهى التى يقيم عليها بيوته التى تأويه ، بل وهى التى يسير عليها ويسعى .

وهكذا بالنسبة للبحار والأنهار والمحيطات وما فيها ..وهكذا بالنسبة للشمس والقمر وسائر الكواكب وحركة الضغط الجوى وتبدل الفصول والرياح.

إن الكون هو (مادة) الحضارة ، وهو " موضوع " علمها ومعرفتها، وكان يمكن أن تظل (كنوز) الكون مطمورة بلا فاعلية ، لولا تلك الحكمة الإلهية التى تجلت فى أمرين هامين كان بهما إمكان تحول هذه الكنوز المطمورة إلى مظاهر حضارة مشهورة ، وهما :

- ما ركب فى الإنسان من استعدادات عقلية ووجدانية ومهارية تتوافق مع هذه الطاقات والكنوز ، ولينظر الإنسان إلى مثال واحدة قد يبدو غاية فى البساطة بحيث قد لا يستلفت (الأنظار) لكنه فى آثاره الإيجابية الحضارية ، بلا حدود ..

فلننظر إلى (يد) الإنسان بتكوينها من أصابع تختلف فى الحجم وفى الطول وفى الموقع ، وحركة (الثنى) بين فقراتها ، كيف كان للإنسان أن يمسك قلما ليكتب ويسجل ملايين الصفحات عبر الأجيال لتنتقل نتائج معرفته من جيل إلى جيل فينمو العلم وتتراكم المعرفة ؟ وكيف كان يتأتى له أن يمسك بتلك الأجهزة الدقيقة للغاية التى شكلت لحمة العديد من مظاهر الحضارة وسداها ؟!!

– ما ركبه سبحانه وتعالى من مظاهر الكون من (سنن) تحكم حركة كل شئ بنظام لا يختل ، يجعل بعضه متناغما ومتسقا مع الأخر .. ترى لو لم تكن هذه السنن ، كيف كان يمكن أن يكون هناك علم ؟! ولو لم تكن هذه السنن الكونية ، كيف كان يمكن للإنسان أن يتنبأ ويتحكم ويسخر المستقبل لخيره ومعا شر ؟

وإذا كان التغير يعنى انتقالا من حال إلى حال ، فإن هذا الانتقال يحتاج إلى معايير تبين هل هو حركة إلى أمام أم إلى خلف ؟ حركة " رجعية " أم حركة " تقدمية " .

ها هنا يجئ بعد الزمان الذى يعبر عن التتالى السائر إلى أمام ، وبعملية التسجيل للأحداث والوقائع التى تتم فى كل لحظة وعهد وفترة، وبمقارنة هذا الذى حدث وذاك الذى سوف يحدث ببعد الزمان فى تقاطعه مع بعد الإنسان، وبعد المجتمع وبعد المكان نستطيع أن نحدد هل هذا التغير من شأنه أن يدفع إلى أمام أم من شأنه أن يدفع إلى خلف ؟ !

٣– الأبعاد الأيديولوجية والمعرفة :

فالتغير ليس حركة عشوائية ، ولا هو مجرد تبدل عفوى يحدث بمنطق (التشكيل الفسيفسائى) ، وإنما لابد أن يكون كحركة (السيمفونية) تتنوع فيها الآلات وتتباين فيها الحركات الجزئية وتتعدد النغمات ، لكنها فى حركتها الكلية ، ومجموعها العام تشكل حركة متناغمة متسقة تسد حاجة لدى الإنسان .

والذى يوفر هذا التناغم وهذا الاتساق لحركة التغير الحضارى ، هو أن تكون هناك " إيديولوجيا " ضابطة للإيقاع .. إطار فكرى عام مهيمن لا بمعنى القهر والتسلط ، وإنما بمعنى توفير حدود عامة مشتركة تعطى للحضارة مذاقها

الخاص وطابعها المميز وبصمتها التاريخية، وبعبارة موجزة هى " الشخصية الحضارية " إن صح هذا التعبير .

ولننظر نظرة تأمل خاطفة إلى الحضارات الفرعونية والإغريقية والإسلامية ، فهل يستطيع مدقق أن يخفق فى البصر بما كانت تقوم عليه كل حضارة من هذه الحضارات من إيديولوجيا أو فلسفة عامة ؟ وهل يستطيع أحد أن يجحد أن لكل حضارة من هذه الحضارات شخصيتها المتميزة ، وبصمتها على حركة التاريخ ؟

والأيديولوجيا الحاكمة الموجهة ، قد تكون ديانة وضعية كما فى الهند والصين ومصر والعراق ، وقد تكون فلسفة إنسانية كما رأينا فى الحضارة اليونانية القديمة ، وقد تكون ديانة سماوية ، كما رأينا فى الحضارة المسيحية وفى الحضارة الإسلامية .

وإذا كانت (الأيديولوجيا) تعبر عن (الفكر العام) ، فإن المعرفة تعبر عن (الفكر الخاص) والذى يتصل بكل جزئية من جزئيات الإنسان والكون ، فالمعرفة الخاصة بجسم الإنسان المتمثلة بعلوم الطب والمعرفة الخاصة بالحيوان المتمثلة بعلوم الحيوان ... وهكذا الشأن فى علوم النبات والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والتربية وعلم النفس والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم الهندسة .. الخ .

هذه المعرفة هى أداة الإنسان الرئيسية لصنع الحضارة بمختلف مجالاتها واتجاهاتها وسبلها ، عن طريقها يصل إلى إدراك حقيقة الظواهر وكنهها ، وعن طريقها يبصر ما قد يكون بين بعض هذه الظواهر من علاقات ، وهكذا حق للبعض أن يقول أنه بقدر ما تكون عليه معرفة الأمة بقدر ما تكون درجة تحضرها .

عمليات التغير الحضارى :

ونريد بهذا الجزء أن نطل على عملية التغير الحضارى فى حالتها (الدينامية) الفاعلة من خلال بعض العمليات التى نسوق الحديث عنها لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل (التمثيل)، هذا فضلا عن أهمية الإشارة إلى وعينا ببعض تداخل لابد من التسليم به بين بعض العمليات :

١- **التراكم** : فكثيرا ما نسمع ونقرأ فى بعض المجتمعات عن فرد ما أو وجهة ما قد توصلت إلى (اختراع) أو إلى (نظرية) أو إلى (وجهة نظر) جديدة ، أو إلى (نظام فعال)، ومع ذلك يظل هذا المجتمع معدودا من غير المجتمعات حاملة راية الحضارة المكونة لقوة الدفع الحضارى .

وتفسير ذلك بسيط ...

فالجهد الحضارى عملية متواصلة ، وسلسلة حلقات متتابعة ، كل خطوة تكمل سابقتها وتهيئ لما تليها ، وأن يجئ الجهد الحضارى كومضة برق خاطفة تمضى لحالها ، فإن هذا وإن كان سيفيد بالتأكيد إلا إنه يظل بحكم (جزئيته) وانقطاع مسيرته ضعيف الفاعلية . وإنما يتأتى التغير الحضارى الحقيقى بعملية (تركيم) للجهود وفق عمليات تنسيق وتنظيم تعين على أن يرتفع البناء طابقا بعد طابق .

والتراكم بطبيعة الحال لا يعنى (التكرار) وإنما يتضمن بالضرورة (التجديد)، ومن ثم الإضافة ، وبالتبعية التطور والنمو والتقدم .

٢- **الإنتشار والغزو** : فالمصباح المتوهج ، لابد وأن ينتشر نوره إلى خارجه ، وبقدر قوة توهجه ، بقدر قوة انتشاره ، وهذا هو ما شهدناه من إشعاعات للحضارات المصرية القديمة البابلية والإغريقية والإسلامية ، وحاليا

الغربية . ويجئ هذا الانتشار طبيعيا ومنطقيا وفقاً لما هو معروف بأن الجـزء الممتلئ إذا جاوره جزء فارغ أو أقل امتلاء ، فلابد أن يفيض الممتلئ على مـا هو فارغ .

لكن هذا الانتشار إذا كان يتم فى كثير من الأحيان بصورة طبيعية إلا أنه أحيانا ما يتم بطريقة قسرية عندما تعمد بعض القوى الكبرى ، والتى تتمتع عادة بمستوى حضارى مرتفع إلى تسييد نمط حضارتها وطريقة تفكيرها وأسـاليب عيشها على بلدان أخرى لتحقيق أهداف تقوم على الاستغلال والهيمنة ، وهذا ما رأيناه على سبيل المثال فى عدد من صور الاستعمار، عندما حاولـت فرنـسا تسييد ثقافتها على شعوب المغرب عامة والجزائر خاصة ، وكما رأينـا فـى محاولة بريطانيا تسييد ثقافتها فى مصر والسودان .

وهذه الحالة ، نستطيع تسميتها " بالغزو " إلا أنها صـورة أخـرى مـن صور " الحرب " قد لا نسمع فيها قعقعة السلاح ودوى القنابل ، ولكن الأهداف النهائية تتماثل مع الحرب المسلحة بل إنها تكون أخطر .

ولو كان هذا الغزو الحضارى مؤديا بالفعل إلى تطوير المجتمـع الـذى يتعرض للغزو ويحضره ويرقيه ، لكان فى الأمر الفائدة كل الفائـدة ، ولكنـه عادة ما يقوم على القهر ووأد مظاهر الابتكار وإشاعة أساليب الخنوع والرضا بموقع " الذيل " والتابع .

ومن هنا كانت الخدعة التاريخية الكبرى فى إطلاق اسم " الاسـتعمار " على هذه الحركات ، فهذه الكلمة تنسب إلى " التعمير " بينما النتيجة المـستهدفة كانت هى (الاستغلال) فكان ما كان من تخريب وتدمير !

٣- الاقتباس والنقل : وهذا الفعل غالبا ما يتم من قبل الأقل حضارة مما يعد نتيجة منطقية ، حتى لقد ذهب ابن خلدون إلى القول بأن " المغلوب " مولع

دائما بتقليد الغالب . ومع ذلك فقد يتم الاقتباس والنقل من قبل أمة لا تقل تحضرا عن تلك التى تنقل عنها وخاصة عندما نلمس نقصا معينا فى جوانب من الجوانب لديها بينما يوجد لدى الأمة الأخرى، هذا ما نراه من اقتباس اليابان مثلا بعضا من النظريات العلمية الأوربية والأمريكية .

لكن عملية الاقتباس والنقل خاصة عندما تتم من قبل أمة متخلفة تحيط بها أخطار كثيرة عندما تخطئ الأمة فى عملية اختيار ما يستحق الاقتباس والنقل وعندما تخطئ فى التوقيت ، وعندما تفتقد الاختيار مما قد يؤدى فى النهاية إلى مسخ الهوية وإضعاف الذاتية ، كما رأينا مما حدث بالنسبة لتركيا منذ أن تولى أتاتورك أمرها منهيا توجهها الإسلامى متجها بها إلى أن تكون أوربية غربية ، فإذا بها بعد عدة عقود تجد نفسها مرفوضة من الجماعة الغربية نفسها ، وهى قد قطعت العديد من الروابط التى كانت تربطها بالثقافة الإسلامية .

٤- **التلاقح** : ونعنى به هنا تبادل الإفادة والاستفادة من التغير الحضارى بين قوى متكافئة أو شبه متكافئة تحت مظلة حضارية واحدة فإذا كانت اليابان – كما قدمنا فى البند السابق – تجد أنها فى بعض الأحوال بحاجة إلى النقل والاقتباس من بعض البلدان الأوربية والأمريكية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، فإن هذه البلدان بدورها تفعل نفس الشئ مع اليابان ، وبينها وبين بعضها .

بل إنه فى الوقت الذى كانت فيه قوة أخرى مناطحة للغرب الرأسمالى ، فى ما كان يسمى بالكتلة الشرقية ، كان يحدث نفس الشئ، فعلى الرغم مما كان يبدو من تباين النمطين ، إلا أنهما كانا ينتميان إلى نفس المظلة الحضارية الغربية .

وإذا كان البعض يدهش للوهلة الأولى من القول باستفادة البلدان الغربية الرأسمالية من مجموعة الكتلة الشرقية (قبل سقوطها) ، فإن هذه الدهشة سوف تزول إذا دققنا النظر فى بعض التنظيمات النقابية وقوانينها ومكاسب العمال والضمان الاجتماعى والتأمينات ومجانية التعليم وما إلى هذا أو ذاك من توجهات تأثرت بالفكر الاشتراكى .

وقد يحدث (تلقح) من طرف واحد يكون هو (المعاصر) عندما يستفيد من بعض منجزات حضارة (ماضية) ، بل إن هذا أمر حتمى رأيناه من استفادة الحضارة الإسلامية ببعض عناصر الحضارة اليونانية والحضارة الهندية والحضارة الفارسية والحضارة الرومانية. وهو الأمر الذى حدث كذلك بالنسبة للحضارة الحديثة عندما استفادت من منجزات الحضارة الإسلامية التى سبقتها .

٥- **التخفى للاستمرار** : فلأن الحضارة جهد يتميز بالاستمرار ، فإن بعض عناصرها تتخفى فى صور جديدة عندما تتعرض للانهيار والاختفاء من على مسرح الحياة شجرتها الأصلية الكبرى .

إن الاستمرار الذى نقوم به هنا لا نقصده بالنسبة لحضارة بعينها ، فهذا لا يحدث ، حيث لكل حضارة دورتها الزمنية التى قد تطول وقد تقصر وفقا لكل حالة على حدة ، فتقوم ، ثم تختفى مخلية الطريق لحضارة أخرى جديدة ، فالاستمرار إذن هو للمسيرة الحضارية البشرية العامة .

ولعل من الأمثلة البسيطة التى يمكن الإشارة إليها هنا ، تلك المظاهر التى ترتبط (بالموت) فى الحياة المصرية ، فقد يتوهم البعض أن بعض عادات المسلمين فى مصر فى هذا الشأن " إسلامية " ، وهذا غير صحيح حيث أنها غير موجودة فى بلدان إسلامية أخرى ، وإنما هى " فرعونية " تلبست ببعض

الأشكال العربية الإسلامية حتى تستمر بعد أن اندثرت الحضارة المصرية القديمة وجاءت الحضارة الإسلامية لتتميد الحضارة المصرية .

ونفس الشئ يمكن قوله بالنسبة للمناسبات الشهيرة بـ (شم النسيم) التى التصقت فى أذهان البعض بالعهد القبطى ، بينما هى فرعونية الأصل .. وهكذا

دور التربية فى ضبط التغير الحضاى والتفاعل معه :

ونحن إذا أمعنا النظر فى مفهوم التربية وأعملنا أدوات التحليل فى مضمونها ، فسوف يتأكد لنا دورها فى ضبط التغير الحضارى والتفاعل معه ، ذلك أن التربية فى مفهومها العام هى عملية تنمية شاملة متكاملة للجوانب المختلفة لشخصية الإنسان إلى درجة من الكفاءة والفاعلية تمكنه من حسن التعامل مع متغيرات الحياة النفسية والاجتماعية والبيئة الطبيعية .

فالتربية إذن لن تكون (طرفا) مستقلا يمكن أو قد لا يمكن أن يعنى بالتغير ، وإنما هى بحكم مفهومها وبحكم مفهوم التغير تجد نفسها فى (قلب المعركة) إذا صح هذا التعبير ، فالإنسان – كما أسلفنا وهو صانع (التغير) وهو كذلك غايته ، ولكى نحسن عملية التنمية الشاملة المتكاملة لمختلف جوانب الشخصية ، فلابد أن يكون هناك (ضبط) و (توجيه) للتغير فى صالح هذه العملية ، والتغير إذا كان علينا أن يكون سويا فلابد أن يكون صانعه سويا وغايته على أعلى قدر ممكن من السوية .

ولعلنا بعد بيان هذا المنطق العام نكون فى حاجة إلى قدر من التفصيل ، للآليات المختلفة ، والعمليات المحددة التى يمكن للتربية عن طريقها أن تقوم بما يجب أن تقوم به نحو التغير الحضارى :

١- إن من أخطر ما يمكن أن يترتب من انحراف نتيجة التغير الحضارى أن تفقد الأمة البصر الدقيق بالفروق الحقيقية بين ثوابت حضارتها ومتغيراتها ، فإذا كان منطق الكون وسنة الحياة التغير ، إلا أن هذا لا يعنى التبدل الدائم والتحول فى وزنه وفى أفكاره وفى وظائفه ومهامه ، وفى علاقاته وما شابه هذا وذاك ، ولكنه يظل " فلانا " بالذات .. بصمته تظل ثابتة .. ملامحه العامة .. جنسه .. نوعه ..

وإذا سقنا مثالا على ذلك " اللغة العربية " فسوف نجد أنها تقف فى مقدمة المقومات الأساسية لحضارة الأمة العربية ، فهى من " ثوابتها " التى تحتاج إلى المحافظة عليها ، ولكن المعارف والمعلومات فى المجالات الإنسانية والاجتماعية ، والعديد من النظم السياسية والاجتماعية ، وبعض العادات والتقاليد ، وكذلك ما يتم نقله أو اختراعه من منجزات تقنية ، فهذا مما يحتاج دوما إلى إعادة النظر من حين لآخر لتطويره وتجديده .

وليس معنى هذا أن تقف اللغة العربية جامدة باعتبارها من الثوابت ، هناك مساحة يجب الاعتراف بخضوعها للتجديد، مثل المفردات والمصطلحات التى تجد بالتقدم العلمى والتقنى ، وهناك ما تحتاج إليه بعض أساليبها من التبسيط الذى يجعلها لغة تعليم فعالة ، وهناك صور توظيفها التوظيف الأمثل فى مجالات الحياة العملية .

إن مثل هذا وذاك ليس من الأمور التى يصدر بها قانون أو توجيهات عامة ، وإنما لا تتأتى إلا من خلال العملية التربوية المتمثلة فى تعليم وتعلم مختلف الأنساق المعرفية بحيث يكون هناك هذا الوعى بثوابت الحضارة ومتغيراتها ، وبالتالى ما يكون بحاجة إلى تغير أسرع من غيره وفق قائمة أولويات .

٢- ومن المعروف أن التغير الحضارى قد لا يسير بسرعة واحدة فى مختلف الجوانب حيث من الشائع أن نرى تغيرا ملحوظا فى الجوانب المادية المتمثلة فى التكنولوجيا على سبيل المثال ، لكننا نرى سرعة أقل فى جانب النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية ، وربما بطئا ملحوظا فى ما يتعلق بالقيم والاتجاهات .

إن هذا الاختلاف فى سرعة التغير أمر له مبرراته التى قد لا يتسع المجال لبيانها تفصيلا ، لكننا من ناحية أخرى لابد أن نهرع ونتحرك عندما يصل الأمر إلى أن يشكل التوازن المفقود خطرا على بنية القيم والعلاقات الاجتماعية فى الأمة .

وعلى سبيل المثال فقد شهدنا صورا مذهلة من التقدم فى الأجهزة والأدوات التى نحتاج إليها فى العمل المنزلى ، وشهدنا كذلك تدفقا من النساء إلى الالتحاق بأعمال مختلفة نظير أجر، خارج المنزل . وهذا وذاك من حتميات التغير الحضارى الذى له متطلباته وفوائده سواء بالنسبة للمرأة أم لأسرتها أم لجملة المجتمع .

لكننا عندما ندقق النظر التحليلى سوف نجد أن نظرة الرجل العربى إلى المرأة العربية على وجه العموم ، وعندما تكون زوجة على وجه الخصوص ، هذه النظرة لم تتغير إلا تغيرا طفيفا ، ذلك أن خروج المرأة إلى العمل ، يؤدى إلى اقتطاع جزء كبير من الوقت المتاح لها فى المنزل ، فضلا عن استنفاذ جزء كبير أيضا من الطاقة البدنية والنفسية ، مما كان يقتضى أن تكتسب بعض الحقوق ، وتخفف عنها بعض الواجبات .

ومع ذلك فما زال الرجل العربى يطالبها بأن تقوم بنفس وكل الأدوار التى كانت تقوم بها عندما كانت متفرغة للمنزل .

وما زالت بلدان عربية لا تبذل الجهد الكافى لتعميم دور الحضانة ورياض الأطفال كما ونوعا وإدخالها جزءا أساسيا فى نظام التعليم ، وهذا الجانب بالذات هو الإسهام الحقيقى الذى يمكن أن يقوم به نظام التعليم لمواجهة هذا الخلل فى سرعة التغير بين خروج المرأة للعمل ، وحاجتنا إلى تربية الأطفال فى سن ما قبل المدرسة .

ولا يمكن الاكتفاء بهذا وحده ، وإنما نحن فى حاجة إلى عرض هذه القضية فى بعض برامج التعليم الثانوى والعالى سعيا وراء تصحيح بعض المواقف والإتجاهات نحو المرأة .

٣- ولأن معدل سرعة التغير فى تزايد مذهل ، فقد أفرز هذا لنا ما يعرف الأن بصراع الأجيال .

لقد كان مألوفا منذ عدة عقود ، حيث كان نمط الأسرة الممتدة ما زال شائعا أن يتواجد الجد والأب والحفيد ، وربما جد آخر أسبق من الأول ولا نلحظ اختلافا وتباينا فى المفاهيم السائدة وأساليب التعامل القائمة مما وفر قدرا ملحوظا من الوئام والانسجام بين أفراد العائلة .

لكننا الآن ، وفى ظل اختفاء الأسرة الممتدة لتسود الأسرة النووية المقتصرة على الأب والأم والأبناء نشهد تباينا واضحا بين الأباء والأمهات من جانب ، والأبناء من جانب آخر ، فما بالنا بالجدود ؟ بل إن التباين أخذ يتسع بين الأبناء أنفسهم الذين يتفاوتون فى الأعمار تفاوتا ملحوظا ، وكأن الآباء والأمهات ينتمون إلى قرن آخر غير هذا القرن الذى يعيش فيه الأبناء ، مما يترتب عليه من صور نزاع وعراك بين الفئتين وضعف سبل التفاهم والإقناع والاقتناع .

وأحيانا ما يمتد ذلك إلى خارج المجتمع ، فتسود الشباب عادة اتجاهات رفض واضحة واحتجاج صارخ للنظم والقيم السائدة ، وقد يتخذ هذا الرفض والاحتجاج صور انحراف خلقى فيشيع التحلل ويكثر تعاطى المخدرات، وقد يتخذ الرفض صورة انسحاب من المجتمع باعتبار ذلك احتجاجا صامتا وإشارة إلى عدم الرضا عن التعامل مع البنية القائمة من العلاقات الاجتماعية ، وقد يتخذ الرفض والاحتجاج صورة العنف المسلح والتطرف مما يشكل أخطار واضحة على المجتمع .

ونفس الشئ نراه يحدث فى مجتمع المدرسة والجامعة إلى الدرجة التى أصبحنا نسمع ونقرا عندها عن اعتداءات من طلاب بعض معلميهم .

ان الجهد الأكبر فى هذا الشأن إنما يقع على الكبار لمواجهته وتجاوزه . إن تصور إلغاء " الصراع " وهم لا ينبغى الوقوع فيه وإنما يصبح المطلوب هو تلافى آثاره السلبية .

وهنا نجد من الضرورى ونحن نضع خطط التعليم وبرامجه ألا تكون هذه الخطط وهذه البرامج مصورة لأخلاقنا نحن الكبار وتصوراتنا فقط بتأثير ادعائنا أننا أدرى بمصالح أبنائنا فهم الأجدر بالتعبير عن احتياجاتهم ، وهم الأولى بالتعبير عن تطلعاتهم المستقبلية ونادرا ما نرى الجهات المسئولة عن وضع برامج التعليم تدخل رأى الذين سوف يستهلكون هذه البرامج، مع أننا نفعل عكس ذلك عندما نقيم مشروعات تجارية ، إذ نقوم بدراسة الجدوى والتى يكون من جوانبها استطلاع آراء (الزبائن) ومعرفة أذواقهم واحتياجاتهم !! أليس الأبناء أولى بمثل هذا ؟!

٤- ومما لا يحتاج إلى شهادة منا القول بأن " الغرب " هو الجهة الأساسية والمصدر الرئيسى لإنتاج التغير الحضارى المعاصر ، مما يعنى أن (

لغته) أو إن شئنا الدقة (لغاته) هى وسيلة الاتصال والتعلم من أجل استيعاب المظاهر المختلفة لمنجزات هذا التغير .

ولعل فى مقدمة اللغات الغربية ، تقف الإنجليزية أولا، فالفرنسية ثانيا ، فالألمانية ثالثا بحيث يصعب ، إن لم نقل (يستحيل) على أمتنا العربية أن تواكب ركب التحضر ، ما لم تُعلم أبناءها على الأقل اللغة الأجنبية الأولى .

لكن أخطر ما يمكن أن نقع فيه حقا هو افتقاد الوعى بالتفرقة بين "تعليم اللغة الأجنبية " و" التعلم باللغة الأجنبية " . وما نلح عليه ونطالب به ، هو الأمر الأول وليس الأمر الثانى ، بكل أسف شديد !

إنه لمن الطبيعى أن تكون الخطوة الأولى فى الاتصال الحضارى من أمة تخلفت بأمم أخرى تقدمت ، هى " الترجمة " من لغة المتقدم إلى لغة المتخلف ، ما يقتضى أن يقوم جهاز التعليم بتعليم اللغة الأجنبية لأبنائه حتى يمكن أن يتوافر للأمة عدد كبير ممن يستطيعون الترجمة ، وحتى تتضخم القاعدة العريضة من قراء الأجنبية لفهم علومها واستيعابها رأينا هذا قد حدث فى التاريخ العربى الإسلامى عندما قامت مراكز ترجمة مما سوف يأتى تفصيله فيما بعد ، وخاصة فى عهد الدولة العباسية . ورأينا هذا أيضا على يد محمد على عندما أخذ يقيم بناء الدولة الحديثة فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر.

لكننا من واقع هاتين التجربتين لم نر تعليما للعلوم المختلفة باللغة الأجنبية ، بل إن محمد على عندما اضطر فى البداية إلى الاستعانة بمعلمين أجانب لتعليم العلوم الحديثة فى المدارس المصرية حيث لم يكن هناك من العرب من يعرفها ، كان يحرص على إيجاد (مترجم) عربى بجوار المعلم الأجنبى .

إننا عندما نُعلم اللغة الغربية ، فإننا نزود أبناءنا (بالأداة) وبوسيلة الاتصال ويظل الأبناء مرتبطين بلغة الثقافة الأم ، ولكننا عندما نُعلمهم العلوم

المختلفة باللغة الأجنبية فإننا نقطع الروابط بينهم وبين اللغة الأم ونقذف بهم فى محيط العقل الغربى ، ذلك لأن اللغة – فضلا عن كونها أداة اتصال – هى مركب ثقافى ونهج عقلى .

٥- وعلى الرغم من تأكيدنا المرة تلو الأخرى بأن " التغير " سنة كونية وحتمية وبشرية ، إلا أننا ينبغى الاعتراف بأن هناك قطاعات غير قليلة فى مجتمعنا العربى تنظر إلى التغير على إنه (رجم) للشرور ومعمل تفريخ للأثام ومولد لانحرافات . هم لا ينكرون (التغير) ولكنهم بهذا الاعتقاد المسيطر على أذهانهم يتمنون ألا يحدث حتى يتوقف الانحراف وتنحسر الشرور فتضمحل الأثام .

وهنا يصبح من مهمة المربين أن يوضحوا من خلال البرامج والمقررات التى يُعلّمونها، ومن خلال الأنشطة التى ينظمونها ويشرفون عليها ، ومن خلال المواقف السلوكية المختلفة أن التغير ، إذ يكون سنة إلهية فلابد وأن تكون طاقته الأساسية لصالح الإنسان ولخير الأمة وأن هذه الشرور والأثام والانحرافات ليست قدرا محتوما يرافق التغير ، وإنما هى قد ترتبط به بفعل غياب الوعى المستنير ، وربما بفعل تطبيقات خاطئة ، وربما لعدم اتخاذ الإجراءات والاستعدادات المختلفة التى لابد أن ترافق هذا وذاك .

وعلى سبيل المثال فمنذ عقود قليلة رأت بعض المجتمعات العربية أنه من أجل تحقيق تكافؤ فى فرص التعليم وترسيخ قيم العدل الاجتماعى وتهيئة المناخ الصحى لحسن ممارسة القيم الديمقراطية ، فلابد أن تتاح هذه الفرص التعليمية لكل الناس بحيث لا يحول بينهم وبين التمتع بها عائق الفقر الذى يشيع فى مجتمعات عربية كثيرة، بناء على هذا تقرر أن يقدم التعليم مجانا على أساس أن تتحمل الدولة تكلفته .وكان هذا تغيرا فى اتجاه بعض القيم الحضارية المعاصرة فماذا حدث ؟

كان الأخذ بهذا المبدأ الإجتماعى والتربوى يتطلب توفير أعداد أكبر من المعلمين ومضاعفة عدد المدارس ، وما يترتب على هذا وذاك من مضاعفة ميزانية التعليم ..

لكن شيئا من هذا إن كان قد حدث ، فقد حدث بنسبة لا يمكن أن نضمن معها أبدا أن تستمر العملية التعليمية بالكفاءة المطلوبة ، فإذا بمستوى التعليم يضعف وإذا بهذا الضعف التعليمى يفرز للمجتمع مكامن الشرور والآثام التى جعلت كثيرين يشيرون بإصبع الاتهام إلى المبدأ (مجانية التعليم) على أنه هو السبب ، مع أنهم لو انتبهوا إلى عدد آخر من البلدان العربية ذات الوفرة الاقتصادية مما مكنها من أن تعمم التعليم مجانيا مع توفير الإمكانات اللازمة لوجدوا أنه إن وجدت سلبيات فى هذه البلدان ، فإنها لأسباب أخرى حيث لم تفرز المجانية أيا من هذه السلبيات !

٦- وفى جميع ما ذكرنا فى البنود السابقة المتعلقة بدور التربية وهى تلك التى قد تأتى، نجد الحاجة ماسة إلى (تعليم حى) بدلا من هذا (التعليم الميت) الشائع، والتعليم يكون حيا عندما يندمج خلايا حية فى نسيج الفكر والسلوك ، ويكون ميتا حين " يُحفظ " ليصبح (عهدة) تختزن فى " الحافظة " العقلية إلى حين عندما يطلب استردادها زمن الامتحان ! إن التعليم عندما يقف عند حد (التلقين) و (الحفظ والاستظهار) يستحيل أن يملك قدرة على استيعاب التغير فضلا عن القدرة على ضبطه وتوجيهه والتفاعل معه .

إن الأمر هنا أشبه بالمأكولات التى نتناولها من خضروات وفواكه وخبز وما إلى هذا وذاك ، فهى إذ تمر بعمليات حيوية تقوم بها أجهزة ذات كفاءة وصحة ، تتحول إلى أنسجة وخلايا وشرايين تعين الإنسان على أن يكون حيويا نشطا يكد ويسعى ، يناضل ويكافح بفاعلية واقتدار . لكن هذه المأكولات عندما تكون معطوبة ، أو غير مناسبة وملائمة للأكل أو تمر بجهاز بالجسم مصاب

بالاضطراب والخلل ، أو لا تمر بعمليات الهضم وتلقى العصارات المختلفة الضرورية ، يستحيل تحولها إلى جزء من نسيج جسم الإنسان ، فيفقد الحيوية وتقل كفاءته العملية فى التعامل مع متغيرات الحياة .

وهكذا الأمر بالنسبة للغذاء العقلى. فهو لابد وأن يسير وفقا لسنن الناموس .. لابد من حسن هضم ، ولا يتم هذا إلا بوعى وفهم واقتناع فتتحول الأطعمة الفكرية إلى جزء أساسى فى نسيج العقل ، فيكتسب صحة وقوة ورشدا يمده بأسلوب التفاعل الذكى النشط مع متغيرات الحضارة المحيطة .

٧- ومع إيماننا بديمقراطية التغير الحضارى من حيث الإنتاج وكذلك من حيث الاستهلاك ، إلا أن هذا لا يمكن أن يحجب عنا تلك الحقيقة التى تشير إلى أن النقلات الكبرى والمحطات البارزة على طريق التغير يرجع الجهد الأكبر فيها إلى كوكبة ممن هيأ الله لهم قدرا من النبوغ وطاقة من الابتكار والإبداع .

وإذا كان النبوغ والابتكار يستند بدرجة أساسية إلى (فطرة) ، فإن هذا لا يعنى إلغاء للدور التربوى ، فالنبوغ والابتكار الفطرى (بذرة) ، والبذرة لا تنمو آليا وإنما لابد لها من رعاية سقى وتغذية وتهوية .

كذلك هذه المواهب الخاصة ، تحتاج إلى برامج خاصة يكثف فيها الجهد حتى يعيشوا مناخا تترعرع فيه مواهبهم وتنمو .

إن الجمهرة الكبرى من طلابنا يقفون بطبيعة الحال فى ذلك المستوى (المتوسط) مما قد يحتم علينا أن نصوغ نظم التعليم وبرامجه بحيث تتناسب مع الأغلبية ، ولكننا إذا وسعنا من آفاق النظر التربوى لأدركنا أن المسألة لا تقتصر بالضرورة على الصيغة النظامية المألوفة ، إذ يمكن تقديم برامج إضافية يلتحق بها هذا النفر من الطلاب القادرين عليها عقليا ، ومن الممكن تنظيم مسابقات علمية وأدبية وثقافية وفنية يمكن أن تواجه حاجات هؤلاء الطلاب،

كذلك من الممكن تقديم بعض الامتيازات كأولوية القبول ، أو التمتع ببعض الخدمات الإضافية .. وهكذا

موقف الإسلام من التغير الحضارى

وأساليب معالجته

تصحيح مركز الإنسان فى الوجود

تؤدى بنا الدراسة الواعية للإسلام إلى أهمية النظر إليه " كمنهج حياة " وليس مجرد مجموعة من المعتقدات التى ترافقها مجموعة من العبارات ، وهو بهذا النظر لابد وأن يكون له موقف ايجابى من التغير الحضارى، ذلك لأن مدى صلاحية المنهج إنما تتبدى خلال ما فى المنهج من إمكانات وطاقات حسن التعامل مع المتغيرات المستجدة بكفاءة واقتدار .

إن هذا المنهج لا يجعل الدين مجرد ذلك النشاط (الروحى) الذى لا يعرف كثيرون صورة غيره للدين ، إنما يجعل الدين بوتقة الحياة كلها ، تصهر فيه ، ثم تشكل فى جميع صورها وألوانها ، كما يجعله هو الإطار الذى تزاول فيه الحياة كل نشاطها فى داخله [٧] . وهذا الموقف يبدأ من نقطة تصحيح مركز الإنسان فى هذا الوجود ، وتعيين مكانه ودوره ، ووظيفته وحقوقه وواجباته [٨].

إنه ليس إلها ينازع (الآلهة) وتنازعه وليس كذلك حيوانا جاءت سيادته على الأرض مصادفة ، وليس آلة تحسب قيمته بقوة (الأحصنة) التى يساويها فى مدة التحريك والإدارة، وليس عبدا للمادة ولا هو لوحة تطبع فيها المادة (أو الطبيعة) ما تريد . وليس عبدا للآلة ، تصرف حياته وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هى وتتقلب، وليس (نمرة) ولا مجموعة (نمر) تتحرك داخل القطيع ، بلا شخصية مميزة ، ولا كيان (فردى خاص).

كلا ، إنما الإنسان إنسان ، هو سيد الأرض ، وهو عبد لله فى آن واحد ... وهو مسلط على هذه الأرض ، ومسخر له كل ما فيها ، وعليه أن يخلف الله سبحانه فيها ويغير فيها ويبدل ، وينمى فيها ويرقى وهو معان على استغلال كنوزها وطاقاتها ، معان بما وهبه الله من قوى وطاقات ، ومعان بما فى نواميس هذا الكون من عون للإنسان فى هذا المجال وفى الوقت ذاته هو من نفسه فى حرم مقدس ، حرم من حرمات الله لا يمسه إلا فى حدود ما شرع الله [٩] .

إن المهندس الذى يصنع (تصميم) قصر من القصور ، لا يقتصر فى تقدير (التصميم) على ما يجب أن يكون فى هذا القصر من حجر النوم والطعام والضيافة ومرافق المطبخ ودورات المياه ونحوها ، بل يدخل فى حسابه – حتما – صلة هذا القصر بما يجاوره من طرق وشوارع وجيران ومناظر طبيعية ، وإقبال الرياح وإدبارها ومساقط النور ، ومداخل الشمس ونحو ذلك .

ونقول – ولله المثل الأعلى – أن الإنسان خلق لمهمة فى هذا الكون ، وقد نص سبحانه على هذه المهمة وأوضحها بجلاء حين قال " وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة " ، فكان من مقتضى حكمة الله أن يسوى هذا الكائن على هذا المثال الذى يتكافأ مع تلك الخلافة وتؤدى به مطالبها [١٠] .

ومكان الإنسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة ، وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة التى تلازمه به طبائع الكائن بين عامة الكائنات ، ذلك أنه هو (الكائن المكلف) [١١] ، وهو بهذا التوصيف أصوب فى التعريف من قول القائلين (الكائن الناطق) وأشرف فى التقدير .. هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط – كما قال (أفلاطون)، ومن الحيوان الصاعد – كما قال فرويد – وأشرف فى التقدير من هذا وذاك ، وليس الكائن الناطق بشئ إن لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف ، وليس الملك الهابط

منزلة تهدى إلى طريق الصعود ، أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء .

إنما الكائن (المكلف) كائن مرتبط بالضرورة بالكد والسعى والنضال من أجل التغيير والتطوير ، وهو فى هذا السعى وذاك الكد لابد وأن يستثمر ما وهب من عقل ومن قدرات ، ولابد أن يجعل يومه أفضل من أمسه ، وأن يسعى إلى أن يكون غده أفضل من يومه .

الثبات والتطور :

كثيرة هى الدعاوى التى تذهب إلى أن التفكير الدينى بصفة عامة أميل إلى الثبات إن لم يكن إلى الجمود ، ومن ثم فإن الإسلام يسير على نفس النهج ، ولعل أشهر ما يستند إليه فى هذا الاتجاه ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، والذين يرددون هذا يخلطون بين جوانب يرى الإسلام ضرورة الحفاظ عليها و (تثبيتها) وجوانب أخرى لابد فيها من التغيير والتطوير ، وبالتالى فإن هذه المقولة النبوية إنما تتعلق بالأصول لا بالفروع !

فالإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الأخر ، عقيدة ثابتة لا ينبغى لها التغيير، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، وأداء الصلوات الخمس كل يوم، وصوم رمضان، وإيتاء الزكاة .. فرائض أساسية لا يلحقها تغيير .. وهكذا وقد أشار الله عز وجل فى قرآنه الكريم إلى هذه الثوابت عندما قال :

- ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧)

ويقول : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء: ١٣٦) .

ونجد فى مقابل ذلك القسم الآخر الذى تتمثل فيه المرونة ويخضع للاجتهاد الذى قد يختلف ويتغير بتغير واختلاف الزمان والمكان ، وهو ما يتعلق بجزئيات الأحكام ، وفروعها العملية ، وخصوصا فى مجال السياسة الشرعية . يقول الإمام ابن القيم فى كتابه " إغاثة اللهفان " [١٢] .

" الأحكام نوعان ، نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها ، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ، ولا اجتهاد الأئمة ، كوجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه " .

والنوع الثانى : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانا ومكانا وحالا كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها ، فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة.

وقد ضرب ابن القيم لذلك عدة أمثلة من سنن النبى صلى الله عليه وسلم ، وسنة خلفائه الراشدين من بعده ثم قال : " وهذا باب واسع اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التى لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودا وعدما " .

وإذا كان الثبات يتمثل فى رفضه صلى الله عليه وسلم للابتكار والاختراع وكل فنون الابتداع فيما يتعلق بالعبادات ، لأن الأصل فى العبادات الحظر والتوقيف ، فلا يعبد الله إلا بما شرعه وأذن به [١٣]، إلا أنه يقف موقفا مغايرا من أمور الدنيا من حيث تشجيع الابتكار والاختراع ، مثل وسائل المواصلات التى يشير إليها قوله تعالى بعد ذكر الخيل والبغال والحمير : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ

تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل: ٨)، ومثل أدوات الحرب التى تدخل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠)، ومثل صناعة السدود العظيمة التى تشير إليها قصة (ذى القرنين) فى سورة الكهف ، وسائر الصناعات الحربية والمدنية ، التى تشير إليها الآية الكريمة: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (سورة الحديد : ٢٥).

ولهذا رأيناه صلى الله عليه وسلم يحفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب ، ويستخدم المنجنيق فى غزوة الطائف ، ويحث على الإنتاج الحربى حتى يجعل صانع السهم كالمجاهد الرامى به فى استحقاق المثوبة عند الله ، ويحذر الأمة أن تكتفى بالزرع وتتبع أذناب البقر كما رأيناه يتنازل عن رأيه إلى رأى أصحابه فيما يرى أنهم أعلم به وأخبر من أمور الحياة التى لم ينزل الوحى ليعلمها للناس ، وإنما تركت لعقولهم وتجاربهم يتعلمونها بدافع حاجتهم وحرصهم على مصالحهم ومعايشهم [١٤] .

وأظهر مثل على ذلك ، قصة تأبير النخل وتلقيحه ، حيث كان ذلك من عادة أهل المدينة إذ هم أهل نخل وزرع ، فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن صنيعهم فأخبر به ، فقال :" ما أراه يصلح "، فبلغهم قوله عليه السلام وظنوه وحيا وتشريعا ، وتركوا التلقيح ، فلم يصلح الثمر فلما علم النبى قال :" إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشئ من رأيى ، فإنما أنا بشر " ، وفى رواية " إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ، أنتم أعلم بأمر دنياكم (رواه مسلم).

" ومن صفات العرض القرآنى للكون أو الطبيعة ، صفة الحركة والتغير ، فالإشارة إلى حركة الكون وتغيره متكررة فى القرآن بشكل يلفت النظر حقيقة ، حينما يقول عن الشمس والقمر بتصميم عجيب " وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " " وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ " (سورة الحج ،

الآية ٥). نحن لا نراها حين ينبت النبات أنها تهتز.. هناك حركة أنت تراها هامدة ، وهى ليست هامدة ، وما أكثر خداع البصر "أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا "؟ (سورة الرعد ، الآية ٤١) ، الأرض تتحات أطرافها وتتقص ، والكون فى حركة وتوسع " وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ " ، والأيد، القوة " وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ " (سورة الذاريات ، الآية ٤٧)، إذا الخلق يتوسع . هذه الحركة وهذا التغيير أمر هام وسنة كونية [١٥].

لقد سبق أن قال بعض فلاسفة المادية المحدثين (أن أصحاب الأديان يزعمون أن الكون ثابت) ، لأنه نتيجة إرادة ثابتة ، فهو عالم ثابت غير متحرك ، والحقيقة أن العالم متحرك وليست هناك إرادة علوية ٠ يريد هؤلاء بذلك نفى وجود الله ، بينما الأدلة كثيرة والمظاهر متعددة على صفة (الحركة) فى الكون فى التصور الإسلامى ، لقد قال تعالى : " وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ " (سورة النمل ، الآية ٨٨)، هى على التفسيرين ، سواء أفسرناها على قول من يقول بأن المراد فى الآخرة ، ومن يقولون : هذه لم يرد بها الآخرة ، بل الدنيا بدليل قول الله تعالى بعدها : " صنع الله الذى اتقن كل شئ "، فالإشارة إلى إتقان الصنع ، الأوجه أن يكون فى الدنيا وليس فى الآخرة [١٦] .

الاهتمام بالحياة الدنيا :

ومما يتردد على ألسنة البعض أن الأديان – إجمالا – تبغض الحياة للناس ، وتوجه آمالهم إلى الدار الآخرة ، ومن هنا فإن طبيعة الشخص المتدين تقوم على قلة الاكتراث بالدنيا أو التعويل عليها ويتبع ذلك عجز عن تعميرها وشلل عن مواكبة التغير الحضارى .

وليس هذا صحيحا بالنسبة للإسلام . إن الإسلام يقيم أركان الإيمان على فهم الحياة بصدق ، والتصرف فيها بعقل وأمانة ، والقيام برسالتها إلى آخر رمق ، ولعل أقرب ما يصور هذه الحقيقة قول رسول الله " إذا قامت الساعة على أحدكم وفى يده فسيلة فليغرسها " !!

وهذا الأمر بغرز الخضر الذى يخرج منه النبات ، فى تلك الآونة العصيبة له دلالة حافلة ! [١٧] .

إنه أمر بمواصلة أسباب الحياة ، فى الوقت الذى تغرب فيه الحياة وممن صدر ؟ صدر من نبى يوجه البشر للآخرة وبحث الناس على كره جحيمها وحب نعيمها. وقد يبدو هذا الأمر متناقضا فى بواعثه وغاياته ، وهو متناقض حقا لو أن وظيفة الإسلام بناء الآخرة على أنقاض هذه الحياة ، ولكن الإسلام ليس كذلك ، إنه يحمل صلاح الآخرة نتيجة حتما لصلاح الأولى ، أى يجعل الجنة الأولى لأولى الأيدى والأبصار ، لا لأولى العجز والحجاب ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٧٢).

إن حديث الدين المستفيض عن الدار الآخرة إنما يعنى بنفس الدرجة من الإلحاح ، ضرورة الإعداد لها ، وهذا الإعداد لا يكون إلا بمواجهة الحياة الدنيا وإحسان العمل فيها : ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ؟(سورة النمل: ٨٩،٩٠) .

ان زراعة الأرض عمل من أعمال الدنيا ، فانظر كيف تصحبه نية صالحة فيتحول إلى عمل للجنة وجهد للآخرة [١٨]. عن جابر رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، ولا يرزؤه (يأخذ منه) أحد إلا

كان له صدقة إلى يوم القيامة " ! وفى رواية : " لا يغرس المسلم غرسا فيأكل منه انسان ولا دابة ولا طير ، إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة "

وفى رواية عن رجل من أصحاب رسول الله يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم بأذنى هاتين يقول : " من نصب شجرة فصبر على حفظها ، والقيام عليها حتى تثمر ، كان له فى كل شئ يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل " .

والامام أبو حامد الغزالى ، استلهاما لعقيدة الإسلام، يشن حملة شعواء على هؤلاء الذين لا يبذلون جهدا ملموسا للكسب والرزق فى الحياة الدنيا ، ويشير إلى عدد من الحرف التى يوهم أصحابها الناس أنهم يعملون ، لكنهم فى هذا كاذبون ، وهو يتهم بعض الحرف بأنها " خسيسة " ، إذ يسمى كل ما يندرج تحت بند اللاعمل أو اللاحرفة ، أو اللاجهد حقيقى باسم (الكداية) ويضعها جنبا إلى جنب مع اللصوصية [١٩] .

ففى مؤلفه الشهير (إحياء علوم الدين) يحدثنا عن (بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها) التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم ، ينبهنا فى البداية إلى أن " الدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، وللإنسان فيها حظ ، وله فى إصلاحها شغل " ويذكر لنا تلك البديهة التى تتمثل فى أن حظ الناس من الدنيا وصلاحها استوجبا كثرة الأشغال والأعمال ، مما يحتاج بعضه إلى نوع تعلم وتعب فى الابتداء [٢٠] .

وهو يقودنا إلى بيت القصيد فيقول : وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به ، أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف ، فيحتاج إلى أن يأكل مما سعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان : اللصوصية والكداية ، إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعى غيرهما ،

ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ، ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير .

اللصوصية نعرفها ، ولا حاجة بنا إلى التفصيل عنها ، لكن (الكداية) هى التى تحتاج إلى حديث ، الكدى فى اللغة هو الاستعطاء وحرفة السائل الملح – وهو ما نسميه (بالشحاذة).

يقول الإمام الغزالى : وأما المكدى فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره ، وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك ، فما لك والبطالة ، فلا يعطى شيئا ، فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم فى البطالة .

من نماذج هؤلاء من احتالوا للتعلل بالعجز ، إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون ، وإما بالتعامى والتفالج والتجانن والتمارض (ادعاء الإصابة بالشلل أو الجنون أو المرض) وإظهار ذلك بأنواع من الحيل ، مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرحمة [٢١] .

ويضيف أيضا : ويدخل فى هذا الجنس – من المهن الخسيسة – الوعاظ والمكدون على رؤوس العوام ، وأخذ أموالهم بأنواع (الكداية) .

وقد كان الرجل نافذ البصر عندما صنف كل اكتساب بغير جهد ضمن الأعمال الخسيسة، ووضعه فى مقام اللصوصية ، فالكداية سرقة غير مباشرة لجهد الآخرين ، تأخذ فى ظاهرها طابع الاحتراف والامتهان ، وتقدم للناس فى صورة عمل مشروع ومقبول نسبيا، أما اللصوصية ، فهى سرقة مباشرة لأموال الناس ، خاب محترفوها فى الاحتيال والكداية ، وربما طمعوا فى وفي المال وسريع الكسب [٢٢].

التدرج :

ولعل هذه القضية من أقوى الأدلة وأنصع البراهين المؤكدة على ذلك الموقف الإسلامى الواعى من مسألة التغير الحضارى .

فبمراجعة السور المدنية على حسب ترتيبها فى النزول فى الوحى المدنى ، وبمراجعة الآيات المدنية فى السور المكية حسب ترتيب نزول هذه السور فى الوحى المدنى ، انتقل من وضع المجتمع الجاهلى ، وهو المجتمع المادى الوثنى إلى وضع المجتمع صاحب الحضارة الإنسانية الممثلة فى الإيمان بالقيم العليا التى تستشف من ذات المولى جل جلاله ومن صفاته ، وفى العمل تقريبا من هذه القيم فى تطبيق الإنسان المؤمن وسلوكه مع نفس ومع غيره ، انتقل على فترات هى فترات نزول الوحى ، وأخذ مستويات فى التدرج الاجتماعى تقربه من الصورة الواضحة للحضارة الإنسانية ، بقدر ما تبعده عن صورة المادية الوثنية للمجتمع الجاهلى[٢٣] .

ومعنى ذلك أن المجتمع الإسلامى لم يتكون فى تشريعه دفعة واحدة ، ولا انتقل فجأة من وضعه السابق إلى الوضع المرغوب فيه ، وهو الوضع الإنسانى أو الإسلامى ، وإنما الوقت الذى شغله نزول الوحى بالقرآن كان هو ذلك الوقت الذى تم التحول فيه من مجتمع المادية إلى مجتمع أصحاب القيم الروحية والإنسانية والتنجيم فى نزول الوحى كان المنهج القرآنى فى تطور بناء المجتمع ، فعندما يبلغ المجتمع مستوى معينا عن طريق العمل طبقا للإيمان بما نزل من قبل ، ينزل الوحى بتحديد مستوى أرفع يدفع إلى بلوغه إيمان المؤمنين .. وهكذا ، وكلما تجدّ مشكلة فى التطبيق بسبب الأعراف والعادات ، أو بسبب تسلط المتبعين السابقين على التفكير أو السلوك ، كلما يأتى الحل فى الكشف عنها وتوضيحها ، وما يقال من أسباب النزول لبعض الآيات إنما يلقى من غير

شك ضوءا على البواعث التى كونت المشكل الذى نزل الوحى بشأن التوجيه فيه .[٢٤]

وتطور تشريع المجتمع الإسلامى فى نزول الوحى به ، ليس هو تطور مبادئ الإسلام ، إذ مبادئ الإسلام ثابتة وقائمة كما قدمنا ، لأنها تمثل علم الله الكامل الذى لا يقبل الصيرورة والتطور بحال ، وإنما التطور أو التدرج هو فى (النزول) بتلك المبادئ حسب أوضاع المجتمع والزمن الذى مر على هذه المبادئ . مر فقط على نزولها والوحى بها ، أى مر بين بعضها بعضا ، ولكن لم يمر على انتقالها فى ذاتها من حال أدنى إلى حال أفضل ، وهكذا . [٢٥]

وفيما يلى تطبيق لهذه القاعدة :

أ- التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة .[٢٦] فقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى قوم يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله غيره ، ويسفكون الدماء ويشربون الخمر ويزنون ، ويغتصبون الأموال ، ويئدون البنات خشية العار ، ويقتلون الأولاد خشية الفقر ، ويظلمون النساء ويتزوجون نساء الأباء ويجمعون بين الأختين كما يتظالمون وتقع بينهم الحروب لأوهى الأسباب ، كناقة رعت من حمى ، أو سبق فرس أو نحو ذلك . وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات الأعوام حتى تأكل الأخضر واليابس . وكان التكافل والتعاون بينهم يكاد يكون معدوما ، فلا تراحم بين الأغنياء والفقراء ولا بين السادة والعبيد ، ولا بين الأقوياء والضعفاء .

ومعلوم أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة ، والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهى عنه ، لأن للعقائد – حتى ولو كانت باطلة وللعادات حتى ولو كانت مستهجنة – سلطانا على النفوس ، والناس أسرى ما ألفوا ونشئوا عليه ، لذلك جاءت مبادئ القرآن للتدرج مع الناس فى انتزاع هذه العقائد

والمنكرات ، فتنهاهم عن عبادة غير الله ، فإذا ما أقلعوا عنه ، أخذ فى النهى عن منكر غيره .. وهكذا . بل كان القرآن يتدرج معهم فى انتزاع المنكر الواحد ، كما حدث فى تحريم الخمر .

ب- التدرج فى تثبيت العقائد الصحيحة ، والأحكام التعبدية والضوابط الاجتماعية والأخلاقيات الفاضلة ، فأمرهم أولا بالإيمان بالله وعبادته وحده حتى إذا ما آمنوا بالله دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر ثم الإيمان بالرسل والملائكة . حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأُشربوا حبه ، سهل عليهم بعد ذلك تقبل الأوامر والتشريعات التفصيلية والأحكام العملية ، والفضائل والآداب السامية فأمروا بالصلاة والصدق والعفاف ثم أمروا بالصوم ، ثم بالحج ... الخ . ومن هنا كان مدار الآيات فى القسم المكى – كما أوضحنا من قبل –على إثبات العقائد والفضائل التى لا تختلف باختلاف الشرائع . بخلاف القسم المدنى .[٢٦]

ج- نزول القرآن مفرقا : بل أن القرآن فى نزوله راعى مبدأ تربويا هاما ، فمن المبادئ التربوية التى كشف عنها علماء النفس ، أن التدريب الموزع خير من التدريب الذى يتم مرة واحدة ، وكذلك الحفظ .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وإننا ننظر أيضا إلى هذا المبدأ الإسلامى الشهير بأنه دعوة من شأنها أن تعزز التغير الحضارى الإيجابى وتبدد صور الانحراف السلبى التى قد تتولد نتيجة هذا التغير ، إذا ما أخذ تطبيق هذا المبدأ على وجهه الصحيح الداعى إلى إرشاد إلى سبل الصلاح وخير الأمة وتطويرها ، والنهى عن كل ما يضعفها ويقعد بها عن الطريق فى حدود التوجيهات الإلهية .

ومن هنا نجد ذلك الاهتمام الواضح فى كل من القرآن الكريم والسنة النبوية بالحملة على مظاهر الفساد الاجتماعى والانحراف الشخصى والدعوة

إلى محاربته ، والوعد الإلهى بإثابة السائرين على طريق الاستقامة ، وتحذير كل من يسعى بالفساد إلى أنه لن يفلت أبدا من العقاب الإلهى سواء فى الدنيا أو الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (سورة الحج ٤٠، ٤١) .

وأيضا : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (سورة النازعات ٣٧-٤١) ، وأيضا يقول : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٤).

بل إن منهج الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يحتم على كل مسلم أن يكون رقيبا على ما يجرى حوله من أعمال ، وما يغيب من أعمال أخرى ووزن كل ذلك بموازين الشرع ثم الأمر بما خفى من المعروف والنهى عما ظهر من المنكر ، على أساس من العلم والمعرفة، وهو منهج يتطلب ، بحكم فريضته ولا سيما على من يرى المنكر ، أن يكون الجميع على شئ من العلم ، بالضروريات ، وهى الحلال والحرام والسنن والواجبات .[٢٨]

وتكرار الأمر والنهى على أسماع الناس كلما خفى معروف أو ظهر منكر على مر الأيام ، يحقق من غير شك تثقيف الأمة كلها رجالا ونساء دون جهد ولا إرهاق ، فإن الإنسان لا يفتر عن سماع العلم فى كل ساعة من ساعات حياته ، حينما يدعو الناهى غيره إلى ما يصلح شرعا أو يستمع مع كل دعوى إلى دليلها وهو المقصود الأسمى الذى يريده الله لمجتمع المؤمنين .

ودارسو التاريخ يعلمون حق العلم أن الله عز وجل أفاض على أمة المسلمين فى صدر الإسلام التدقيق والانتصار لأن الصحابة لم يفرطوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد ضعف ذلك بعد وفاة أكثرهم ، وهذان الركنان هما – بعد الإيمان – أعظم أركان خير الأمة، ومن هنا فإن الأمة الإسلامية ، فيما يقول بحق صاحب تفسير المنار [٢٩] ، ما فتئت خير أمة أخرجت للناس حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فالأمة الإسلامية إذن ليست " خير أمة " هكذا على إطلاق وإنما ذلك مرهون بمدى قيام أفرادها وجماعاتها بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذا يتفق تماما مع منطق العقل ، وذلك أن الأمة عندما تركن إلى الفساد ولا يسعى أحد من أفرادها إلى وقفه أو إقامة ما من شأنه أن ينميها ويقويها ويطورها وفقا للشريعة الإسلامية وقيمها واتجاهاتها ، فإن إسلامها يكون منقوصا ، وبالتالى تنتهى عنها صفة (الخيرية) المشار إليها فى الآية القرآنية الكريمة .

وقد بين (الفخر الرازى) فى تفسيره نحو ما تقدم من وصف الأمة هنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان علة لكونها خير أمة أخرجت للناس ، فقال [٣٠] : " وأعلم أن هذا الكلام مستأنف ، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له ، يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فها هنا حكم الله بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات ، وأعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات .

الخبرة الإسلامية فى مواجهة التغير الحضارى

منهج للتجديد ، لا مذهبية تجميد :

إننا إذ نبسط بين يدى القارئ الخبرة الحضارية الإسلامية فى مواجهة التغير لابد وأن نحدد ابتداء انطلاقنا من مبدأ (توقير السلف) دون أن يعنى هذا (التمذهب بالسلفية) .[٣١]

التمذهب بالسلفية ، يعنى أن للسلف مذهبا خاصا بهم ، يعبر عن شخصيتهم ، ويعنى أن الذين دخلوا فى المذهب هم من دون سائر المسلمين ، الذين يمثلون حقيقة الإسلام وينهضون بحقه ، فالإسلام يغدو من خلال هذا التصور والفهم هو التابع لهذا المذهب وأصحابه يسير وراءهم أنى ساروا !

أما تقدير السلف واتباعهم ، فإنما يعنى تكريم أولئك الذين أمر رسول الله بتكريمهم من أصحاب القرون الثلاثة الأولى ، الذين أخلصوا دينهم لله ، واعتصموا صادقين بحبل الله كما يعنى اتباعهم فى فهم الإسلام ، والاقتداء بهم فى المنهج الذى ترسموه فى فهم القرآن والسنة . [٣٢] فالإسلام فى الحقيقة هو المتبع ، ومنهجه فى الدراسة والفهم هو المحور الأساسى ، أى أن التمذهب بالسلفية هو تعلق بأشخاص ، وهو غير مطلوب ، بينما اتباع السلف هو تعلق بمنهج وموضوع ،وهو مطلوب " والأول وهم مبتدع لم يكن له أى وجود فى عصر السلف الصالح .. والثانى واجب بإيجاب رسول الله له ، وهو جزء لا يتجزأ من آداب الفهم والسلوك الإسلامى " .

أن تستخدم عقلك أنت، وحواسك أنت ، فهذا ما ألح عليه بعض من العلماء أو الفقهاء المجددين ، ذلك أن " شيوخنا رجال ونحن رجال "، وقد كان هذا هو رد اثنين من العلماء على قرار الخليفة المستعصم عندما طلب من

علماء الفقه فى المدرسة المستنصرية أن يوقفوا تدريس أى فكر بخلاف أقوال الأئمة (الأربعة) وهذا هو ما أدى فيما بعد بإغلاق باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى . (٣٣)

إن أبا داود يروى عن الإمام أحمد بن حنبل قوله :" لا تقلدنى ولا مالكا ولا الثورى وخذ من حيث أخذوا "، ثم قوله " من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال "، ويرى ابن القيم أنه لهذا السبب لم يؤلف ابن حنبل كتابا فى الفقه وإنما دون أصحابه وتلاميذه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته عن أسئلة الآخرين .

وهذا الإمام مالك يعرض عليه الخليفة الرشيد أن يلزم الناس بمذهبه فى الفقه ، ولكن الرجل ينهاه عن ذلك ، إدراكا منه لمخاطر الترديد والتقليد .

وهذا الإمام الشافعى يقول : إذا صح خبر يخالف مذهبى فاتبعوه واعلموا أنه مذهبى ، ويقول أيضا لتلاميذه إذا ذكرت لكم ما لم تقبله عقولكم فلا تقبلوه ، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق.

والإمام محمد بن على الشوكانى يطرح القضية على الوجه التالى : فى القرن الثالث الهجرى ، وفيه أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل لم يكن فى عصرهم مذهب رجل معين يتدارسونه وأن حدوث التمذهب بمذاهب الأئمة الأربعة إنما كان بعد انقراض هؤلاء الأئمة ، وقد كانوا (يقصد الأئمة) على نمط من تقدمهم من السلف فى هجر التقليد وعدم الاعتداد به ، وأن هذه المذاهب إنما أحدثها عوام المقلدة لأنفسهم ، من دون أن يأذن بها إمام من الأئمة المجتهدين . (٣٤)

إنه لمما لا شك فيه أن من أهم الأسباب التى تدفع بعجلة الحضارة إلى الدوران : التجديد ، فإذا لم تخرج الأجيال الجديدة عما قالته الأجيال السابقة

ركدت الحضارة وجمدت ، ومن هنا هاجم ابن القيم الذين يأخذون بالتقليد بغير دليل ، فقال " نقول لطائفة المقلدين : هل تسوغون تقليد كل عالم من السلف والخلف أو تقليد بعضهم دون بعض ؟ فإن سوغتم الجميع كان تسويغكم لتقليد من انتهيتم إلى مذهبه مساويا لتسويغكم تقليد غيره سواء بسواء ، فكيف صارت أقوال هذا العالم مذهبا لكم تفتون بها وتقضون وقد سوغتم من تقليد هذا ما سوغتم من تقليد الأخر ، فكيف صار هذا صاحب مذهبكم دون هذا وكلاهما يسوغ أتباعه ، فإذا كانت أقواله من الدين فكيف ساغ لكم دفع الدين وإن لم تكن أقواله من الدين فكيف سوغتم تقليده ؟

ثم إنكم معشر المقلدين ، إذا قال بعض أصحابكم ممن قلدتموه قولا خلاف قول متبوعكم أو خرجه على قوله جعلتموه وجها وقضيتم وألزمتم به فإذا قال الإمام الذى هو نظير متبوعكم أو فوقه قولا يخالفه لم تلتفتوا إليه ولم تعدوه شيئا ، ومعلوم أن واحدا من الأئمة الذين هم نظير متبوعكم أجل من جميع أصحابه من أولهم إلى أخرهم ، فمقدورا أسوأ التقادير أن يكون قوله بمنزلة وجه فى مذهبكم .. فيا لله العجب ! صار من أفتى أو حكم بقول واحد من شيوخ المذهب ، أحق بالقبول ممن أفتى بقول الخلفاء الراشدين وابن عباس وابن مسعود [٣٥] وهذا من بركة التقليد بدون النظر فى الدليل .

وفى ظل هذا العقل المتفتح انتفت الحساسية من التطلع إلى آخرين من أجناس ومذاهب وعقائد أخرى ودعوتهم للمشاركة فى صنع الحضارة ، من ذلك أن الأطباء المسيحيين فى العهدين الأموى والعباسى ظلوا محل الرعاية لدى الخلفاء ، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب فى بغداد ودمشق فترة زمنية طويلة . كان ابن أثال الطبيب النصرانى طبيب معاوية الخاص ، وكان (سرجون) كاتبه . وقد عين مروان (اثاناسيوس) مع آخر اسمه اسحق فى بعض مناصب الحكومة فى مصر ، ثم بلغ مرتبة الرئاسة فى دواوين الدولة ،

وكان عظيم الثراء واسع الجاه حتى ملك أربعة آلاف عبد ، وكثيرا من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة. وقد شيد كنيسة الرها من إيجار أربعمائة حانوت كان يملكها فيها ، وبلغ من شهرته أن وكل إليه عبد الملك بن مروان تعليم أخيه الصغير عبد العزيز ، الذى أصبح واليا على مصر فيما بعد ، وهو والد عمر بن عبد العزيز . (٣٦)

وكانت الحلقات العلمية فى حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . كانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها وكان يقول لهم : ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الدينى كى لا تثور بذلك مشاكل طائفية .

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية ، قال خلف بن المثنى : " لقد شهدنا عشرة فى البصرة يجتمعون فى مجلس لا يعرف مثلهم فى الدنيا علما ونباهة ، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (سنى)، والحميرى الشاعر وهو (شيعى) ، وصالح بن عبد القدوس وهو (ثنوى) وسفيان بن مجاشع وهو (خارجى صفرى) وبشار بن برد (وهو شعوبى خليع ماجن) وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبى) وابن الرأس الجالوت الشاعر (وهو يهودى) وابن نظير المتكلم (وهو نصرانى) وعمر بن المؤيد (وهو مجوسى) وابن سنان الحرانى الشاعر (وهو صابئى) ، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ، ويتحدثون فى جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الإختلاف الشديد فى دياناتهم ومذاهبهم . (٣٧)

ويطول بنا المقام لو حاولنا الاستشهاد ببعض النماذج الفكرية لمفكرين استطاعوا أن يستثمروا النهج العقلى ، فيفرزون ثمرات فكرية كان لها دورها فى التغير الحضارى .

من هؤلاء نشير إلى (الجاحظ) ، فهو يدعونا إلى التبصر عند النظر ، فإذا كانت لنا قضية يراد لنا أن نحكم فيها ، فلابد من (التثبت) ، وإذا كنا أمام (شبهة) فلابد من (التوقف) ، ثم يقدم لنا منهجا يرفض الإجابة ب "لا" فقط أو ب" نعم" ، لأن للحقائق زوايا وقسمات تستدعى الإجابة العلمية عن مسائلها الربط بين هذه الزوايا والقسمات ، فلربما كانت الإجابة فى بعض نواحيها بـ (نعم) وفى بعضها الأخر بـ (لا) . [٣٨]

وهو يعرض لهذا الموقف المنهجى باعتباره منهجه فى كتابه (الحيوان) ، فهو يرفض التمذهب الذى جعل الناس فرقا وشيعا أراحت عقول المتذهبين من عناء النظر فى كل معضلة وقضية ومسألة عندما " ترك الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانبا وأضربوا عنه صفحا ، فليس إلا : لا ، أو نعم ، إلا أن قولهم (لا) موصول منهم بالغضب ، وقولهم (نعم) موصول منهم بالرضا " ! وينبه الجاحظ على أن هذا المسلك المعيب قد حرم الناس من استخدام نعمة (الحرية) فلم يكتشفوا ، بواسطتهم ، الحلال من الحرام ، ولا الحسن من القبح ! إذ قد عزلت الحرية جانبا .. كما يقول بمسلكهم هذا .

وإذا كنا لا نستطيع الزعم بأن الجاحظ هو رائد استخدام الشك سبيلا إلى اليقين إلا أننا نستطيع القول بأنه كان من الرواد الأول ، إذ فرق بين أن يعرض لك شك فى أمر ، فتبحث حتى تصل عن طريق هذا الشك إلى اليقين ، كما حدث للبعض وبين أن تقف أمام الأمور ، عمدا وبمنهج ذى قواعد ، موقف الشك الذى يرفض التسليم والراحة الإيمانية إلا بعد اختبار هذه الأمور والتحقق من مقدماتها ببرهان العقل الذى يدحض أو يثبت ، ووسائل النظر والتدبر ، كما رأينا عند ديكارت ، ومن قبل ، أبا حامد الغزالى [٣٩] .

الجهد التعليمى :

ثمة حقيقة لابد من التنبيه إليها وهى أننا فى كل حديثنا عن المنظور الإسلامى إنما نتناوله باعتباره نهجا تربويا، لأنه فى لحمته وسُداه منهج لصياغة شخصية الإنسان وبالتالى فإن الصفحات القليلة التالية عن (الجهد التعليمى) لا تعكس وزنا مماثلا للتعليم فى الحضارة الإسلامية ، وانما هى مجرد أمثلة لجهد ذى طبيعة خاصة نحصره فى ذلك المعنى الضيق المراد من التعليم كجهد منظم للتنمية العقلية بالدرجة الأولى ، على أساس أن هذه الصورة من صور التنمية إنما هى (أداة) يقتحم بها الإنسان سائر مجالات التغير الحضارى .

فعندما أمن الرسول دعوته واستقر بالمدينة ، وقد تكون المجتمع الإسلامى الناشئ على أسس حضارية وقيم ثقافية فى إطار الدين الجديد فإنه سرعان ما نهض صلى الله عليه وسلم بمحاربة الأمية وتزكية الأميين ، واستقر نصره الإسلامى الأول فى غزوة بدر ، وربط فداء كل أسير بتعليم عشرة من غلمان المسلمين من أهل المدينة تعليما وظيفيا يكسبهم مهارات الكتابة والقراءة ، وكانت هذه بداية طيبة فى حركة تثقيفية متصلة لجماهير المسلمين صغارا وكبارا . (٤٠)

وعندما ندب فريق كبير من رجال مكة للاشتراك فى تأديب العاصين من مرتدى القبائل وذلك فى عهد الخليفة أبى بكر ، أو اختير فى العمل فى المدينة بجانب بيت الخليفة ، ظل الكثير من شيوخها عاكفا على علمه من القرآن وظل شبابها يتدارس ما حفظه من آياته . وكان من الطبيعى أن يزداد عدد الكاتبين الذين حرصوا على تدوين ما تلقنوا من آياته عن شيوخ الصحابة وكبار المهاجرين سواء فى عهد أبو بكر أو فى عهد عثمان أو عهد على . (٤١)

ولما توسعت الفتوحات الإسلامية وسارت جيوش المسلمين خارج الجزيرة العربية برزت الكتاتيب بصورة واضحة ، وتعددت فى كافة المدن والعواصم والقرى التى حل الفاتحون بها . ولا شك أن كثرة الفتوحات ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية وتحمس الناس الشديد للقرآن الكريم قد كان سببا لبروز ظاهرة تعدد وانتشار الكتاتيب . (٤٢)

ولقد كتب ابن حزم يقول : " مات رسول الله والإسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم مارا إلى سواحل اليمن كلها إلى بحر فارس إلى منقطعه ، مارا إلى الفرات ثم على ضفة الفرات إلى منقطع الشام إلى بحر القلزم ، وفى هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلا الله كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طى وربيعة وقضاعة والطائف ومكة ، كلهم قد أسلموا وبنوا المساجد ، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب "، ثم قال بعد ذلك : " ثم مات أبو بكر وولى عمر ، ففتحت الفرس طولا وعرضا ، وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها لم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد ، ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن ، وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا " . (٤٣)

وقد وجدت مدارس خاصة بتعليم كبار السن ، يحكى ابن بطوطة عنها فيقول : " ومن أرباض دمشق ربض الصالحية ، وهى مدينة عظيمة ... بها مدرسة تعرف بمدرسة إبن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن من الشيوخ والكهول ، وتجرى لهم لمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا ، مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة منجا " . (٤٤)

وسواء وجدت للكبار مدارس خاصة بهم أو مكاتب شاركوا الصغار فيها ، فإن هؤلاء الكبار لم يهملوا فى أمر تعليمهم ، وبالذات فى مجال تثقيفهم أو

تفقيههم فى أمور الدين وحفظ القرآن كان فى مركز هذا التعليم أو التثقيف وكان هذا الحفظ يتطلب فى معظم الأحوال معرفة القراءة والكتابة .

وكان نجم الدين محمد الطبندى محتسب القاهرة صاحب مبادرة ثقافية حين قرر أن يوزع فى سنة ٧٩٠ هـ فقراء الفقهاء على الباعة بسائر الأواق لتعليمهم القرآن وما يلزم فى الصلاة وقدر لكل معلم على كل حانوت فلسين فى اليوم .

هذا الحماس الذى وجدناه عند بعض المسئولين لتعليم الكبار يقابله حماس مماثل عند بعض الأفراد مدفوعين بقيم دينية للتعلم ، ولم يمنعهم كبر السن أن يبدأوا التعلم وأن يستمروا فيه، فهذا هو ابن اينال م / ٣٧٦هـ " سمع – كما قال الذهبى – وتعلم الخط وهو كبير ، ورزقه الله من المعرفة والفهم شيئا كثيرا " (٤٥) .

ولقد كان المسجد فى صدر الإسلام هو المكان الذى يتخرج منه الفقهاء والعلماء والقادة الصالحون فى شتى المجالات . كانت المدرسة التى تربى الرجال ، وكان المركز الذى تدور حوله حياة المجتمع وعلى نور رسالته تسير خطى الحياة فى المجتمع (٤٦) . كان بحق كما قال الله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (سورة النور ، الآيات ٣٦-٣٨) .

ومن المهم أن نشير أن المساجد عندما اتخذت معاهد للعلم ، فقد ضمن ذلك كفاءة العلماء من ناحية وحرية أهل العلم من ناحية أخرى ، فقد أصبحوا بهذا فى امتحان أو محنة يوما بعد يوم ، ومن المؤكد أنه لو كانت الأمة تركت

العلم لرجال الدولة ، لما ظل العلم فى بلاد الإسلام دائما فى ذلك المستوى الرفيع ، فقد كان على العلماء أن يواصلوا الدرس ليحافظوا على مكانتهم أمام الناس الذين يستمعون إلى دروسهم . ولو تبنت الدولة العلم لفرضت على الناس – إذا شاءت – الأدعياء والدخلاء وأفسدت بذلك العلم ، ولو قعد العلماء للتدريس فى دور بنتها لهم الدولة وتقاضوا أرزاقهم منها لأصبحوا فى عداد خدامها وحواشيها . (٤٧)

فهذه هى القيمة الحضارية الحقة لكون التعليم فى المساجد قد كان جهدا شعبيا وليس حكوميا ، وكان التمويل (خاصا) عن طريق الأوقاف وليس من بيت المال ، فسارت حركة الحضارة فى ترق ونمو وازدهار حتى فى تلك الفترات التى شهدنا فيها أحيانا – بذور صراع فى السلطة السياسة ، أو مظاهر فساد – فى أحيان أخرى .

حركة الترجمة

وكان تأسيس دار الحكمة على يد المأمون (٢١٧هـ –٨٣٢م) تعبيرا ثقافيا عفويا عن استحالة الاستعصاء على المؤثرات الثقافية غير الإسلامية التى وجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه معها دون سابق تخطيط اجتماعى . لقد وضعت دار الحكمة ، بين أيدى المفكرين المسلمين كل التراث الهلينى الكلاسيكى الذى جلبه معهم العلماء الوثنيون الهاربون من اضطهاد الإمبراطور جوستنيان فى القسطنطينية والذين هاجروا بعلومهم ومعارفهم إلى سوريا والعراق وإيران خصوصا إلى مدارس أديسا Edossa ونصيبين Nissibin وجنديسابور عندما امتد الإسلام فى القرنين السابع والثامن إلى هذه البلدان اتصل اتصالا مباشرا بهذا الميراث الوثنى المادى ووجد بعض المسلمين فيه جدة وجاذبية ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح القرن التاسع الميلادى (

القرن الثالث – الرابع الهجرى) عصر الترجمة من الفلسفة الإغريقية وكتب الطب والرياضيات والعلوم الأخرى إلى العربية . [٤٨]

ولم يقتصر عمل دار الحكمة على الترجمة ، فقد ألحقت بها مكتبة واسعة للمخطوطات وعدد كبير من الاختصاصيين الأكفاء ليقوموا بترجمتها وأنشئ إلى جانبها مرصد فلكى ، وإلى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك . ومع وجود المكتبة والعلماء الباحثين ومدرسة الفلك والأوقاف التى تيسر تمويل هذه المؤسسات ، غدا من المتعذر ألا تجتذب (دار الحكمة) الطلاب اليها ، وهكذا أصبحت نوعا جديدا من معاهد البحث والدراسة العليا ، أو بعبارة أخرى، أكاديمية. كذلك لم يقف أثر دار الحكمة على الترجمة فقط ، فسرعان ما أعقب عصر الترجمة عصر آخر كان عصر إنتاج وابتكار أثبت المسلمون فيه أنهم لم يكتفوا باقتباس تراث فارس القديم وتراث اليونان وهضمه ، بل حولوا التراثين لحاجتهم الخاصة وطرق تفكيرهم وأضافوا إليها ما استطاعوا أن يستنبطوه ، وقد ظهرت مآثرهم فى الطب والفلسفة ، ولكنها تجلت بنوع خاص فى الكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافيا – بل لقد تفردوا عربا ومسلمين بمذاهب فى البحث والابتكار فى ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وعلومها . [٤٩]

ولم تكن دار الحكمة وحدها مركزا للترجمة والنقل ، وإنما شارك فى ذلك أفراد آخرون وعائلات ومراكز تضافرت جهودها جميعا فى هذا الشأن وهكذا .

وكان لحركة الترجمة حسنات عدة من حيث الموقف الحضارى يمكن أن نذكر منها :

أ- اتساع الحضارة الإسلامية بما دخل عليها من ثقافات الأمم ومناحى تفكيرها .

ب- اطلاع المسلمين على علوم كانوا فى حاجة إليها كالرياضيات والطب .

ج- إتاحة فرصة مبكرة للمسلمين مكنتهم من أن يؤدوا رسالتهم فى تطور الحضارة الإنسانية . إن المسلمين لم يكونوا يعرفون لغات أجنبية ، فلو لم ينقل القلة من غير المسلمين لهم علوم الهند والفرس واليونان (برغم ما كان فى هذا النقل من الأخطاء والمساوئ) لما استطاع المسلمون أن يجيلوا عبقريتهم فى هذه العلوم ويزيدوا فيها ويجعلوا منها نعمة على البشر كلهم . ولو أن المسلمين انتظروا حتى يتعلموا اللغات الأجنبية ويقوموا هم أنفسهم بالنقل (تلافيا للأخطاء التى جاء بها النقلة عفوا أو عمدا) لمر قرن كامل على الأقل قبل أن يستطيعوا ذلك ، ولجاز أن يفقد المسلمون – فى أثناء ذلك – رغبتهم فى العلم أو أن تضطرب أحوالهم المعيشية (فى السياسة والإقتصاد والإجتماع والفكر) أو أن يضيع ما كان قد بقى إلى أيامهم من كتب العلم .

د- ارتقاء الحضارة الإسلامية ، بما كانت قد استفادته من فنون المعرفة) فى الحياة العملية وفى البناء وأسباب العيش ، وفى الزراعة والصناعة والأشعار والتطبيب ... الخ .

هـ- اتساع اللغة العربية بالمصطلحات العلمية والتعابير الفلسفية مما دل أيضا على قدرة اللغة العربية على مجاراة الحركة العلمية ، كما جاءت الحركات الأدبية والدينية والإجتماعية .

و- تطور الأدب العربى من ناحيتين : بما كان قد زاد فيه من الفنون والخصائص والمعانى بالاطلاع على الحياة والفكر عند الأمم ، ثم بتسرب عدد من المدارك والتعابير الفلسفية تسربا طبيعيا أو تملحا من الأدباء أنفسهم (فى النثر والشعر) .

ز- الاستفادة من المقاييس والمدارك الأجنبية فى معالجة عدد من العلوم الشرعية واللغوية فى التعريف والتقسيم والمنهج المنطقى والبراهين . (٥٠)

التغيرات الحضارية العالمية ودور تعليم الكبار من منظور إسلامى فى توجيه هذا التغيير

ملامح عامة لأهم التغيرات :

إنه لمن أكثر المهام صعوبة فى هذا الشأن أن نحاول هنا رصد الملامح العامة لأهم التغيرات الحضارية العالمية لسببين :

أولهما : أن هذا موضوع يحتاج إلى كتب عدة لا إلى صفحات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .

ثانيهما : أن الحديث فى هذا الموضوع ليس جديدا ، فهو مطروق بكثرة ملحوظة ، ولعل " التمثيل " يمكن أن يحل لنا المشكلة الأولى ، كما أن " الإيجاز " فى حد ذاته يمكن أن يتفادى الصعوبة الثانية

فماذا يمكن رصده من هذه التغيرات ؟

- لعل حقيقة التغير نفسها هى التى يمكن أن تقف فى المقدمة ، إلى الدرجة التى يمكن عندها للمتحدث أو الكاتب أن يكتفى بها شرحا وتحليلا ليغنى السامع أو القارئ عن أى حديث آخر . والتغير الحادث هو فريد فى (مداه) وفى (نوعه) وفى مجاله ..

* فريد فى مداه من حيث سرعة الإيقاع إلى الدرجة التى أصبح مقياسه اليوم لا يكون بالقرون ولا بالعقود ، وانما بالسنين وربما بالأشهر أو بالأسابيع والأيام .

* وهو فريد فى (نوعه) من حيث أنه لم يعد يتناول الجزئيات والمظاهر الخارجية وسائر ما يقع فى دائرة (الكم) وإنما أصبح يتناول الجذور والأصول دون أن يقف عند الفروع .

* وهو فريد فى مجاله لأن السدود والحواجز أمامه تتكسر اليوم بسرعة ليقتحم كافة المجالات ، فلا نراه فقط فى المجال السياسى على سبيل المثال أو الاجتماعى وإنما نراه – بالإضافة إلى هذا وذاك – فى سائر المجالات الأدبية والفنية والإقتصادية حتى ليمكننا القول بأنه من العسير أن يزعم أحد أن هناك مجالا لم يصبه تغير .

– وإذا كانت حقيقة عصرنا الحاضر هى (التغير) فبسبب هذا الإنتشار الواضح للعلم مادة وطريقة .

فكلمة العلم نفسها تقترن فى بعض الأذهان بمجموعة بعينها من الأنساق المعرفية مثل " الفيزياء " و " الكيمياء " و " الرياضيات " ، أما ما عداه فلم يكن ينظر إليها على أنها (علوم) . بل إننا فى نظمنا التعليمية نقع فى أسر هذا المعنى عندما نشعب طلاب التعليم الثانوى العام إلى (علمى) و (أدبى) مثبتين بذلك صفة العلمية لعدد معين من المعارف دون غيره . وما هكذا الواقع الحادث الآن !

لقد اكتسح تيار (العلمية) معظم الآفاق المعرفية حتى هذه الآفاق التى ما كان يخطر لأحد أن تكون كذلك مثل (الأدب) و (الفن) فالنقد الأدبى – مثلا

– أصبح (علما) بفضل ما تم التوصل اليه من معايير منهجية للضبط الدقيق والتقييم الموضوعى . ونفس الشئ فى بعض مجالات الفن .

كانت التربية جملة من النصائح والتوجيهات وقائمة من الوعظ يصل إليها الكبار نتيجة (خبرة) ، فأصبحت اليوم مجموعة كبيرة من (العلوم) : علوم المناهج وطرق التدريس بمختلف فروعها – التربية المقارنة – الإدارة التعليمية – التخطيط التربوى – اقتصاديات التعليم .. الخ . وكان المعول فى ذلك كله اصطناع العلم – منهجا – وطريقة للتفكير لا تنحصر فى المعامل وأجهزتها وأدواتها .

– وارتبط بهذا التقدم العلمى هذا التدفق المذهل من المعلومات إلى الدرجة التى يشار فيها الآن إلى أن كمية المعلومات المنتجة خلال العشر سنوات المنصرمة مباشرة يمكن أن تساوى كمية المعلومات التى أنتجت خلال عدة قرون كاملة من قرون الماضى .

ولقد بلغ تفجر المعلومات حدا عجزت فيه أرفف المكتبات عن أن تستوعبها مساحة ومكانا ، وإذا بالعلم يصل إلى أشكال لتخزين المعلومات التى تعد بالملايين فى أحجام ومساحات أصغر مما نتصور !

وإذا كان تفجر المعلومات يسير أفقيا بإضافة أراض جديدة كل يوم ، فهو كذلك يسير (رأسيا) بهذا الإنشطار المتتالى لكل نسق من الأنساق المعرفية المعروفة . كان من الممكن أن نشير إلى واحد لنقول أنه متخصص فى (التربية وعلم النفس) ثم إذا بنا نجد ذلك مستحيلا ، فأصبحنا نقول بأن هذا متخصص فى (التربية) أو (علم النفس) ثم إذا بنا أيضا نجد ذلك قد أصبح مستحيلا ، فإذا بنا نقول هذا متخصص فى (المناهج) أو (أصول التربية) أو (

التربية المقارنة)، وهكذا يتوالى الانشطار المعرفى بهذا التدفق المستمر التوالى للمعلومات .

– وإذا كانت هناك مراكز بعينها تتدفق منها المعلومات المتقدمة فى جملة البلدان ذات الدرجة العالية من التطور الحضارى ، فقد كان يمكن أن يؤدى هذا إلى (أرستقراطية معرفية) تجعل المعلومات حكرا لمجتمعات هذه البلدان .. لكن طوفان (التغير) نفسه أصاب أدوات ووسائل الاتصال بحيث أصبح ما يتم الكشف عنه فى إحدى المدن الأمريكية مثلا يمكن أن تصل أخباره إلى سائر أنحاء العالم فى دقائق معدودة . وهذا " الاتصال " السريع جعل احتكار المعرفة أمرا عسيرا ، والعكس الآن هو الحادث : أن المعلومات قد أصبحت (ديمقراطية) ، أى متاحة لكل من يستطيع استيعابها بغير حدود .

ولا تقف المسألة عند حدود (توصيل) المعلومات ، وانما بالتبعية امتدت لتشكل البشر أنفسهم من حيث سهولة وسرعة انتقالهم من مكان إلى آخر مهما تباعدت المسافات ، ويكفى الإشارة إلى سفن الفضاء وللتأكيد على أن (الأرض) جميعا لم تعد (مشكلة) من حيث المسافات فلقد اختزلت كلها لتصبح أحد الأمكنة التى سعى الإنسان لأن ينتقل منها إلى كوكب آخر ؟!

– ومن أهم الملامح التى لابد أن يشار اليها هنا فى مظاهر التغير الحضارى هو الحاجة التى برزت لأن يتوافر لهذه المظاهر عناصر ثلاثة هامة الدقة ، والسرعة ، والكثرة .

- دقة رؤية الإنسان – مثلا – لتركيب خلايا الجسم مما كان يستحيل بالاعتماد على النظر المجرد وحده .

- وسرعة الاتصال بين مراكز الإنتاج ومراكز الاستهلاك في مظاهر التجارة والصناعة والزراعة ، مما كان يستحيل بالاعتماد على وسائل النقل (الطبيعية) .

- وكثرة الإنتاج حتى يمكن أن يشبع حاجات الملايين من البشر ،مما كان يستحيل لو استمر الإنتاج باليد كما كان قديما ..

وهكذا برزت (التكنولوجيا) لتكون (ساحر العصر) إذا صح هذا التعبير فتمكن الإنسان من أن يرى ما لا يراه أحد وأن يسمع ما لا يسمعه أحد وأن يشم ما لا يشمه أحد .. الخ ، وبهذا أصبح الإنسان هذا الكائن الحى الذى كان يبدو ضئيل الجسم أمام كائنات حية أخرى ضخمة محدود القدرة ، يملك من الجبروت ومظاهر القوة ما جعله ماردا جبارا أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يكون بالفعل سيد هذا الكون !

– وكان من شأن هذه التغيرات التى أشرنا اليها – وهناك غيرها مما يجرى مجراها – أن تيسر سبل الحياة ، فتقهر المرض إلى حد كبير وتحسن من أنواع الغذاء وتسهم فى أن توفر للإنسان ماء نقيا وتبعد عنه مصادر العدوى والاعتداء الوحشى من قبل الحيوانات المفترسة والحشرات الضارة ، وكان من شأن هذا وذاك أن يمتد بالمساحة السكانية من أطرافها فى بدايتها بتقليل وفيات الأطفال وفى نهايتها بتزايد فرص امتداد العمر .

وكان من شأن هذا وذاك أن (يكثر) من أعداد السكان لتعود هذه الكثرة نفسها التى هى نتيجة التقدم الحضارى – لتشكل عبئا عليه وعقبة أمام مسيرته بما تفرزه من مشكلات وخاصة فى تلك المجتمعات التى تقف معدلات التنمية فيها عاجزة عن ملاحقة معدلات التزايد (السكانى) وهذا ما نراه واضحا فى الكثرة الغالبة من البلدان العربية .

– من سنن الله فى كونه أن لكل فعل رد فعل مساوى له فى القوة ومضاد فى الاتجاه ، فلقد غلب (التوجيه المادى) كثرة من مظاهر التغير الحضارى من حيث الفلسفة والغاية والمسار ، واستطاع الإنسان بالفعل أن يحصل على ثمرات وإنجازات تحيط به من كل مكان : شكلا مريحا ... الخ ، لكنه مع ذلك شعر بأنه لم يشبع الإشباع الذى يجعله بالفعل مطمئن القلب، هانئ البال ، لا تطارده وحوش القلق والانفعال واللهث الذى لا ينقطع سعيا وراء الكسب .

وهكذا أخذ الإنسان المعاصر – فى خضم هذا التقدم العلمى التكنولوجى – يبحث عن الحقيقة الأزلية موقنا بأن وراء هذا المحسوس خالقا أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .. طريقه هو طريق سعادة الإنسان ، ونهجه هو الطريق المستقيم . واندفعت الملايين من إغفاءة التقدم المادى لتصحو متجهة بقلوبها وعقولها إلى (الدين) تلتمس فيه الرجاء .. وإذا بهذه الصحوة الدينية تغزو مختلف أنحاء العالم ... مسلما أو مسيحيا أو يهوديا .. ربما كان أوضح فى البقاع الإسلامية بحكم أنها كانت أكثر تعرضا للتخلف والإستغلال والقهر .

– وكان من نتيجة كثير من المتغيرات السابقة أن يرافقها تغير آخر هام ، بدونه كان يمكن لثلاثة أرباع البشرية أن تحرم من ثمراته وإنجازاته .. إنها رياح التحرير والمد الديمقراطى .. رياح التحرير التى تمثلت فى العديد من المؤثرات التى استهدفت فك القيود التى كبل بها الاستعمار شعوب كثير من مناطق العالم ، ثم الاندفاع بكل الطاقة أن تكون السلطة بالمشاركة وليست بالاحتكار وبأن تتاح فرص التعبير عن الرأى بغير خوف من قهر القاهرين وسياط الجلادين ، ما دام السبيل بعيدا عن العنف ، مستخدما الكلمة والفكرة المستندة إلى الدليل والحجة .

وإذا كان التغير الحضارى من نتائجه ، هذا المد الديمقراطى ، وتلك الموجه التحريرية، فإنهما كذلك كانا من أسباب دفعه مزيدا إلى أمام وذلك

بإضافة عقول عديدة تشارك بالرأى والفكرة والإنتاج ، وبتوسيع قاعدة الاستفادة ليعم خير التغير أكبر قدر من الجماهير .

– ولقد عودنا التاريخ البشرى عبر العديد من القرون وفى ظل كثير من الحضارات أن يكون هناك – غالبا – تنافس وصراع بين قوتين أو أكثر ، وأبرز ما شهدناه ذلك الصراع القديم بين الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية ، ثم ما شهدناه فى العصر الحديث بين انجلترا وفرنسا ، ثم بين هاتين وقوى أخرى وبين ألمانيا ثم بين الدول الرأسمالية الغربية بزعامة الولايات المتحدة والدول الاشتراكية بزعامة الإتحاد السوفيتى (قبل سقوطها) .

هذه الصوة الأخيرة من صور الصراع ، انفردت دون غيرها من صور الصراع التاريخى ، بأن حسمت دون أن تطلق رصاصة واحدة ! إنه منطق التغير الحضارى المعاصر الذى يتوسل بسلاح الجودة وحجية الفكرة ، وهكذا انهارت منظومة الدول الاشتراكية ليصبح العالم أمام قطب واحد يكاد ينحصر فى الولايات المتحدة الأمريكية .

إن هذه الحالة من الاستقطاب ، لابد أن تكون لها تداعياتها الحضارية مما يصعب التنبؤ به الآن ، لأن العالم ما زال يعيش مخاض نظام عالمى جديد لا يدرى هل سيسير بالفعل تحت مظلة قوة واحدة ، أم ستبرز قوى أخرى جديدة منافسة ؟

وبانتهاء المواجهة بين منظومة الدول الاشتراكية ومنظومة الدول الرأسمالية تنحسر الكثير من موجبات الصراع المسلح ، وتقل إلى حد كبير فرص الحرب الكونية لتظل تباشير سلام ، لا يعنى انتهاء (الصراع) فالصراع سنة اجتماعية ، وإنما – ربما – ستبرز نوعية جديدة من الأسلحة ، ليست هى بالضرورة القنبلة والمدفع وقاذفات القنابل والبارود ، وإنما هى من

نوع الأسلحة التى هزمت مجموعة دول المنظومة الاشتراكية .. تنافس علمى ، صراع أفكار ، تنافس بين النظم الإجتماعية ... صراع بين صناعات ، بين منجزات علمية وتكنولوجية .. وهكذا .

لكن تظل دول العالم النامى مستمرة كساحة صراع مسلح – حتى الآن – بين بعضها البعض أحيانا ، بدوافع مختلفة ، ومدفوعة من قبل قوى كبرى أحيانا أخرى ، وهكذا تحت رايات السلام التى بدأت تتزايد ، بتزايد عدد القتلى من أبناء الدول النامية !

لماذا تعليم الكبار لمواجهة التغير الحضارى ؟

هذا الإلحاح المتواصل عبر البحوث والدراسات ، ومن خلال الكتب ، وداخل أروقة المؤتمرات واللجان والندوات على ضرورة تعليم الكبار حتى يمكن مواجهة التغير الحضارى، هل يستند بالفعل إلى " منطق " ويقوم على " حجية " ؟

ذلك هو ما نحاول أن نبينه من خلال الفقرات التالية :-

– فأى تغيير فى أى شأن من الشئون لابد أن يكون بموافقة أولى الأمر فيه وأولوا الأمر دائما يكونون من الكبار ، فكيف يمكن لفاقد الشئ أن يعطيه ؟ كيف يمكن أن يسهم أصحاب السلطة ومالكو القرار فى كل موقع فى التغيير ، إذا افتقدوا البصر بدواعى التغيير وغفلوا عن سبل التغيير وطرقه وغابت عنهم أهم مجالاته وقواعده وأدوات إحداثه ؟ إنهم يستطيعون أن يتلافوا هذا بالقدر الذى يحصلون فيه على تعليم فعال – والكبار لا يتولون فقط " مسئوليات " وإنما هم أيضا يمتلكون ذلك العنصر الذى يعد طاقة أساسية فى عمليات التغيير ، ألا وهو عنصر (التمويل) بحكم امتلاكهم للمال والذى بدونه يمكن أن تتحطم جهود التغيير أو تنحرف عن المسار .

وإذا كان من الممكن الحصول على المال بالمطالبة والإلحاح وبذل الجهد من أجل الإقناع بضرورة التغيير وأهميته ، إلا أن " تعلم الكبار " يزيد من فرص أن يقوموا هم بالمبادرة دون انتظار للمطالبة .

– وإذا كان جمهور معاهد التعليم المختلفة هم عادة من (الصغار) الذين نعدهم كى يتولوا فيما بعد مهام العمل فى مجالات الخدمة والانتاج ، وبالتالى فهم وقود وأدوات التغيير الأساسية ، إلا أن وقوعهم فى أيدى كبار جهلة ، ووقوفهم تحت مظلة عقلية متخلفة ، يمكن أن (يفشل) من الجهود الضخمة المبذولة لتعليم الصغار ، سواء بالتقاعس عن تعليمهم أو انقطاع الحماس اللازم لاستمرار التعليم أو سوء التوجيه والإرشاد لهؤلاء الصغار .

– ومن العسير أن نتصور إمكان أن يكون هناك مجتمع يجدّ على طريق التغيير بأن يكتفى بوجود قطاعات من أهله هم وحدهم المتعلمون ، فالمجتمع جسم واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .. إذا ظل قطاع منه على حالة الجهل ، فإن هذا من شأنه أن يبث غازات جهل سامة تميت أو تشل بعض الجهود .

إن التقدم جدار صاعد يحول بين المجتمع وبين شرور الجهل وسمومه واستمرار جهل الكبار ، إنما يترك فى هذا الجدار ثغرة خطيرة تضيع على الأمة الكثير مما تبذله من جهد التغيير .

– ودون أن نعنى المساس بالقيمة الإنسانية للكبار ، فإننا لا نستطيع أن ننسى أن كثيرا من عوائق التغير ، إنما تأتى نتيجة وجود قوى للمقاومة .. قوى تركن إلى المألوف وتأنس بسجن العادة وتستطير من التجديد ، وأن جمهور هذه القوى عادة ما يكون من جيل الكبار بحكم انتمائهم إلى عهود سبقت . ولا شك أن قوة المعارضة والمقاومة تكون أشد عندما يتخلف هؤلاء عن ركب التعليم ،

لما هو معروف عن التعليم من حيث جعله العقل مرنا والأفق متسعا مما هو ضرورى لتقبل التغيير فضلا عن المشاركة فيه .

- والكبار - غالبا - هم أمام الصغار مثل ونماذج يقتدى بها ، ولنتصور إنسانا فاقد البصر يقود مركبة ؟ إننا بتعليم الكبار إنما نوفر مثلا ونماذج جيدة يستطيع الصغار أن يطمئنوا للسير وراءها، وهم بعد فى مرحلة الطلب والاعتماد على الكبار دون أن تعنى القدوة هنا ضرورة أن ينسج الصغير دائما على منوالها ويقتضى أثرها ، وإنما - على الأقل - تهديه سواء السبيل.

- والكبار باعتبارهم آباء وأمهات ، فإن تعلمهم يحثهم أكثر على أن يدفعوا بأبنائهم إلى أقصى ما يستطيعون على طريق التعلم ، مما يعنى مزيدا من طاقة التغيير ، وفقا للقاعدة المعروفة من أن الأباء والأمهات يسعون دائما لأن يكون أبناؤهم أفضل منهم ، فإذا كان الأب أميا ، فلربما يقف مستوى طموحه عند حد أن يعرف ابنه القراءة والكتابة أو أن يحصل على مؤهل أعلى أو متوسط .

- والكبار الذين فاتهم قطار التعليم إنما هم فى الوقت نفسه على قدر متقدم من النضج ومن الخبرة ، وهذا وذاك من شأنه أن يجعل تعليمهم ذا فاعلية أكثر وتتأتى له هذه الفاعلية بمقدار ما يتوافر له من دافعية ذاتية للحصول عليه ، وبما يتوافر له من فرص الالتحام بخبرات العمل والممارسة الواقعية ، وكذلك بما يتوافر له من فرص الوعى والفهم .

- وإذا كان الكم الأكبر من الكبار من العاملين فى قطاعات الخدمة والإنتاج فإن دراسات كثيرة يصعب حصرها قد أثبتت أن هناك زيادات ملموسة فى عوائد العمل عندما يستجد عليه عامل التعليم ، ومن ثم تتسارع معدلات

التنمية ، وهى – كما نعلم – المولد الحقيقى لاحتياجات التغيير ، وهى فى نفس الوقت مجاله الأساسى ، وهدفه الأهم .

– وليست المسألة مسألة حسن تربية أبناء فقط ، ولا هى مساهمة فى التنمية ، مع التسليم بخطورة وأهمية هذا وذاك ، وإنما مما لا يقل عن هذا أهمية الحاجة إلى ترشيد السلوك الاجتماعى العام فى مختلف مجالاته ومختلف مواقعه .

– وأخيرا فإن ما يتوج كل هذا أن يمارس الكبير حقه كإنسان أولا وكمواطن فى دولة نامية ، فحقه كإنسان يحتم على المجتمع أن يكون متمتعا بحق التعليم الذى هو مدخل لحسن التمتع بحقوق كثيرة . وحقه كمواطن فى دولة يحتم على الدولة أن تمد مظلة تكافؤ الفرص كى تشمل الجميع، صغارا وكبارا .

المنظور الإسلامى لدور تعظيم الكبار :

مع أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بأنه خلق فى النفس البشرية طبيعة الإحساس بالخير والشر ، كما يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (سورة الشمس: ٧، ٨) ، كما أشار سبحانه وتعالى إلى أنه قد زود الإنسان ببصيرة أخلاقية يستطيع بها التعرف على الخير والشر ، يقول تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ (سورة القيامة :١٤، ١٥) ، كما وهب الله الإنسان العقل وجعله ميزته الكبرى التى استحق بها الخلافة عن الله عز وجل فى أرضه ، وبه حمل الأمانة التى أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال. وقد قدر القرآن الكريم شأن العقل الإنسانى وأشاد بمكانته ونوه بوظيفته. مع كل هذه الامكانيات والاستعدادات التى زود الله عز وجل بها الإنسان ، لم يترك له حرية معرفة واجباته ومسئولياته وحده ، بل

الثابت أن كل المواهب والاستعدادات التى هيأها الله للإنسان ، ما هى إلا أسباب لحمله المسئولية والتكليف ، بل يستحيل أن تكون مصدرا للإلزام وتكليف الإنسان ، لأن فى طبيعة الإنسان ما لا يتلاءم مع ما يصدر منها من أمور تلزمه بها ، فإلزام الإنسان لا يكون إلا ممن خلقه وأنشأه وأبدعه " [٥١] .

وإذا كان لنا أن نؤكد أن هناك فى الاسلام – عقيدة وحضارة – ما من شأنه أن (يُفَعل) دور تعليم الكبار فى التغيير الحضارى ، إلا أنه من المهم جدا بالنسبة لنا أن نسجل الملاحظات التالية [٥٢] .

١- أنه ليس هناك شئ واحد اسمه الحل الإسلامى ، ولكن هناك حلولا عديدة تتبع من رؤية الاسلام وتصوره للكون والحياة ، وبالتالى فإن الحدود تتعدد بتعدد المشاكل، بمعنى أن رؤية الإسلام وموقفه هما العنصر الجامع ، أما الحلول المرتكزة على هذه الرؤية والنابعة منها ، فهى غير متناهية ، لأن وقائع الحياة والتعليم غير متناهية بطبيعة الحال .

٢- أن الحل الاسلامى لا يشترط فيه أن يكون مذكورا فى الكتاب والسنة أو فى مدونات الفقه وكتب السلف ، لكنه يكتسب صفته تلك إذا لم يتعارض مع نص أو قيمة إسلامية، وإذا كان يحقق مصلحة موجوه لمجتمع المسلمين .

٣- أنه على تعدد الحلول الإسلامية لمختلف المشكلات الحضارية ، إلا أن هذه الحلول ليست لها صفة الثبات ، وإنما هى متغيرة بتغير الأزمنة والأمكنة والعوائد والأحوال ، إذا كان الأمر يتصل بالمعاملات لا العبادات ، وتعليم الكبار يقع فى هذا الباب .

٤- أن اختلاف الحل الاسلامى عن غيره ليس مطلوبا وضروريا ، إذ ليس مفترضا أن يكون الحل الاسلامى أمرا فريدا فى بابه ، فإذا حدث واتفقت

القيم أو المصالح بين المسلمين وغيرهم ، واتفقت الحلول النابعة من تلك القيم أو المنجزة لتلك المصالح ، فهذا يعنى أنها من السياسة الشرعية . (٥٣)

٥- أيا كان الحل أو مضمونه ، وعلى فرض تطابق القيم التى ينطلق منها أو يخدمها ذلك الحل ، فإن (المصب) فى التصور الإسلامى يظل مختلفا غاية الاختلاف بمعنى، أن الحل الإسلامى تدور فيه الجزئيات حول محور الرسالة وخلافة الله فى الأرض المنوطة بالإنسان ، بحيث تصبح الحركة جزءا من نظام كلى يقوم على الوصل بين الدنيا والآخرة ، وبين الأرض والسماء وبين الإنسان والله .

٦- أن الحل الإسلامى ليس موجها إلى السلطة وحدها ومؤسساتها ، ولكنه موجه أيضا إلى كافة المكلفين فى مجتمع المسلمين . (٥٤)

وبناء على هذا نستطيع أن نشير إلى عدد من ملامح هذا المنظور الإسلامى :

فالقضية الأساسية هنا هى : إرساء القاعدة المعرفية ، ذلك أن هذا المبدأ هو العامل الأول والفاعل الأساسى وراء عملية الانتقال بالجماعة العربية من حال (الجاهلية) وبداءتها إلى حال (العلم) وحضارته ، لأن هذا الموقف ، بسبب من (ثباته) ، وماله من (قداسة) ، لا تزال له الصلاحية ، اليوم وغدا ، لينتقل بالأمة من (التخلف) إلى (التقدم) ، ومن (الركود) إلى (النهضة) ، ومن (الكسل العقلى) إلى (التوقد العقلانى) ومن (الخرافة الساذجة) إلى (الروح العلمية) التى طبعت فكر الإسلام ونهج المسلمين الذين وعوا خصائص هذا الدين الحنيف . (٥٥)

فالعلم هو نور البصر والبصيرة ، بينما الجهل هو الظلمة ، بل والعمى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (سورة الرعد: ١٩)

وفى الحديث الشريف ، يقول صلى الله عليه وسلم " مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء ، يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة " (رواه الأمام أحمد) .

والعلم – فى (وجوبه) وفى (ضرورته) يتعدى ضرورة (الضوء) و (النور) إلى حيث يراه الإسلام (قوام الحياة) . وإذا كان أدبنا التربوى الحديث قد ألف تشبيهنا للعلم ، فى الأهمية ، بالماء والهواء ، فإن مأثورات إسلامية قديمة تجعل حاجة الإنسان إليه مساوية لحاجته إلى الطعام والشراب ، فالحسن بن صالح يقول : " إن الناس يحتاجون إلى هذا العلم فى دينهم كما يحتاجون إلى الطعام والشراب فى دنياهم " (رواه الدارمى) ، بل إن هذه المأثورات تجعل فى العلم (الحياة) وفى فقدانه (الهلاك) ! فلقد سأل هلال ابن خباب سعيد بن جبير (٤٥-٩٥هـ / ٦٦٥-٧١٤م) " يا عبد الله ، ما علامة هلاك الناس ؟ فأجاب : " إذا هلك علماؤهم " ! [٥٦] .

– وتعليم الكبار إذا ترك للجهد التطوعى والعمل الفردى ، فلربما طال بنا الزمن حتى يؤتى أكله ، ومن هنا كان اتفاق كثيرين على ضرورة (القرار السياسى) ، الذى يجعل من هذه المسألة (مسألة قومية) ، تتضافر فيها الجهود وتستصدر لها التشريعات وترصد لها الأموال والميزانيات . إن هذا إن دل على شئ فإنما يدل على فاعلية وأهمية القيادة الرشيدة فى سياسة المجتمع وادارته ، ونستطيع ان نجد فى الفكر الاسلامى ما يشكل لنا ظهيرا لمساندة المبدأ القائل بأهمية القرار السياسى .

ومن هنا فلا ينبغى لنا أن نستغرب كثافة حجم الرسائل الموجهة إلى الحكام من جانب العلماء فى ملفات الخطاب الإسلامى عبر عصوره المختلفة ، لأن الأمر يتجاوز كونه حلما يراود أهل كل زمان فى صلاح أولى الأمر ، ويعبر عنه أهل الرأى بوسائل مختلفة ، لأنه من المنظور الإسلامى تكليف والتزام ، بمقتضاه يتعين على العلماء أن يتوجهوا إلى الحكام وأولى الأمر بالإرشاد والنصح ، التزاما بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . (٥٧)

ولأن إعلان الرأى والجهر به واجب اسلامى ، ثابت بنصوص القرآن والسنة ، فإن أهل العلم لم يتعاملوا معه باعتباره مجرد حق أو رخصة يخيرون بين فعلها أو تركها ، وإنما أدركوا وجه الالتزام فيه ، بحيث يأثم تاركه ويحاسب أمام الله على التفريط فيه .

من هنا حفلت كتب التراث وأدبيات المسلمين بكم ملحوظ من رسائل العلماء إلى الحكام، التى تراوحت بين النصائح العامة والتوجيهات الخاصة ، وبين المصنفات والكتب، ومشهورة رسائل الامام والقاضى أبو يوسف إلى هارون الرشيد ، وجعفر الصادق وسفيان الثورى إلى أبى جعفر المنصور ، والإمام الغزالى إلى الوزير السلجوقى مجير الدين ..

ونخطئ خطأ كبيرا إذا تصورنا أن تعليم الكبار يمكن أن يكون أداة فاعلة لو تم على أيدى معلمين متخصصين فقط ، وإنما لابد وأن يكون المناخ العام محكوما بالتنور والتثاقف بحيث يصبح المجتمع كله متعلما معلما . إن طبيعة الاسلام تفرض على الأمة التى تعتنقه أن تكون أمة معلمة ، ولا يقوم فيها المعلمون وحدهم بواجب التعليم ، وإنما يصبح كل مسئول عن موقع عمل معلما فى دائرة هذا العمل .

إن التعلم والتعليم روح الإسلام ، لا بقاء لجوهره ولا كفالة لمستقبله إلا بهما ، والناس فى نظر الإسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد ، وليس بعد ذلك من يؤبه له ، قال صلى الله عليه وسلم " العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، ولا خير فى سائر الناس " (٥٨) .

إن الاكتفاء بتحصيل المعرفة إذا كانت له من قيمة ، إلا أن قيمته محصورة فى شخصية العارف والدارس ، ولكن الإسلام يريد من كل مسلم أن يتعدى بما يحصل عليه من النفع إلى الغير كذلك ، ومن ثم يأتى التحريض دائما على (التعليم) فقد حدث حميد بن هلال ، قال : قال أبو رفاعة : " انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقال ، فقلت : يا رسول الله ، رجل غريب يسأل عن دينه لا يدرى ما دينه ، قال : فأقبل على رسول الله وترك خطبته حتى انتهى إلى فأتى بكرسى حسبت قوائمه حديد له ، قال : فقعد عليه رسول الله ، وجعل يعلمنى مما علمه الله ، ثم أتى خطبته ، فأتم أخرها " (صحيح مسلم ، ج٦، ص١٦٥) .

– وحتى يستطيع تعليم الكبار أن يقوم بدوره فى مواجهة التغير الحضارى ، فإنه يحتاج إلى (روح تجديدية) لا تحبسه فى صيغ تقليدية كتلك التى نراها فى تعليم الصغار ولا تتقيد بطرق تعليم تقوم على الحفظ والاستظهار ، وتفتح الباب واسعا لأنماط جديدة من الإدارة التربوية تتسم بالمرونة وتشجيع المبادرات الفردية وتسعى إلى إيجاد أشكال جديدة من المنهج تتسع باتساع خبرة الحياة ، ... إلى غير هذا وذاك من صور التجديد التربوى .

وإن لمما يمد لعقل بطاقات التجديد ، ذلك التمييز الواضح الذى أبرزه لنا الفكر الإسلامى بين أمور (الدين) التى علينا أن نلتزم بما جاء بشأنها وبين أمور (الدنيا) التى للعقل أن يُعمل فيها فكره ابتكارا وتجديدا ، فكذلك علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن ما كان (دينا) ، فمرجعه الوحى ، والتنزيل ،

لأن فيه من (الغيب) ما لا تدركه العقول الإنسانية بـذواتها ومـع اسـتقلالها بالنظر، أما ما كان (دنيا) ، فالمرجع فيها هو العقـل والتجربـة الإنـسانية المحكومان (بالمصلحة ، فى إطار كليات الشريعة والدين) . ولذلك جاء علماء الأصول ، الذين فقهوا السنة ووعوها ، فقسموها إلى (سنة تشريعية)، هى التى تعلقت (بالدين) ، مثل تفسير الوحى وتفصيله ، ومثل الفتيا فيما هـو (ديـن) وإلى (سنة غير تشريعية) ، وهى كل ما يتعلق بأمور (الدنيا) [٥٩] .

ومن هنا امتلأ الفكر الاسلامى بالحلول والمبادئ التـى لا تقـف أمـام الأحداث على كثرتها، وإن ما لا نجده فى مذهب نجده فى غيره ، وما يكـون مضيقا فى واحد منها يكون قابلا للتغيير والتعديل فى غيرها ، كلمـا وجـدت الحاجة إلى ذلك واقتضته المصلحة العامة التى لم تصادم نصا شـرعيا ، وأن الأحكام المبنية على المصالح لم توضع لتكون أغلالا نرسف فى قيودها إلى يوم (الدين) بل إن الوقوف عندها لا يتفق وروح الإسلام .

– وإذا كان الجهد الحكومى من خلال مؤسسات التعليم النظامى قد يضيق عن أن يتسع لجهود تعليم الكبار ، فإن هناك مؤسسة إسلامية هامة تستطيع أن تفعل الكثير فى هذا المجال التربوية الهام مما يجعل هذه المؤسسة قوة تغييـر حضارى لا حدود لفعلها الإيجابى . إن هذه المؤسسة هى المسجد ..

هو بيت الله فى الأصل ، ولكن الخطاب القرآنى يلحق لفظ الجلالة أحيانا لأحوال يكون فيها الشأن لكافة الناس ، فمال الله هو مال المسلمين ، وحكـم الله هو ما يلتزم بشريعة الله حقا ، وعند الفقهاء ، فإن حقوق الله تتضمن كـل مـا يتعلق بمصالح وحقوق عامة الناس .. وهكذا .

وبالتالى ، فإن بيت الله هو فى حقيقته (بيت الأمة) .

ونحن إذا تدبرنا ما كان يقوم به المسجد النبوى فى حياة الرسول صلى عليه وسلم لأدركنا هذه الحقيقة واضحة جلية .

من المسجد انطلقت أجهزة السلطة فى طريق مرسوم ، رئيس دولة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤاخى بين المهاجرين والانصار ، ثم تعاهد اليهود وتشمل بسلطانها مناطق اليهود كافة ، وأصبح المسجد مكان تجمع العسكر ، فمنه تتابع خروج سرايا الدولة فى كل الأنحاء .. وفى المسجد قامت إدارة مرافق الدولة ومنها : التعليم والعدل وقسمة الأموال ، وتدريب القادة المفكرين للأمة ، واجتماع الرسول بصحبه ، وفيهم ولاته وكتابه وأمرائه ، وفى المسجد كانت لقاءاته مع الوفود وقيادة الأمة وإمامة الجماعات . (٦٠)

– والمنظور الاسلامى لا يرى فى تعليم الكبار مجرد عملية تعريف وتدريب على القراءة والكتابة وإنما عليه – ضمن ما هو مطلوب منه من متطلبات – أن يكون أداة تخليص للعقل من " المخلفات الفكرية " التى تجعل العقل أسيرا للخرافة ومقيدا " بالتقليد الأعمى " ، وهذه وتلك من سمات " التفكير الجاهلى "

إن الإسلام نعى على الجاهلية الأولى هذا اللون من الفكر ... الفكر الذى نبحث فى نشأته فلا نجد له أصلا شريفا ، إنما هو التخمين غير المضبوط والتقليد والجمود . وتدبر قوله عز وجل يصف معالم الفكر الجاهلى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ١٩).

إذا شهد الإنسان بعينه شيئا فأخبر بما شهد فلا ملام عليه ، لكن كيف يلقى أخبارا لم يشهدها ؟ إن إلقاء القول على عواهنه من مظاهر التفكير الجاهلى . (٦١)

ومظهر ثان ينكشف لنا من قول الله بعد ذلك في سورة الزخرف (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)) . الكذب والجهل والتخرص .. هو خبء ذا الادعاء على الله ، والله جل شأنه ما أرغمهم على شرك ولا أغراهم بافتراء !

ثم يطرد النظم القرآنى كاشفا عن مظهر ثالث للتفكير الجاهلى ، ويتساءل : من أين لهم أن يقولوا ما قالوا ما دامت الدلائل الحسية تنقصهم ؟ أنزل عليه الوحى ؟ ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٢١) كلا إنه التقليد الأعمى ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (سورة الزخرف ٢٢) .

وأخيرا تنتهى مجموعة الصفات التى تبرز فى التفكير الجاهلى بالوصف الأخير وهو الجمود وجحد الحق : ﴿ وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٢٣، ٢٤) .

– ويمثل " تمويل التعليم " مشكلة كبرى تحول بين كثير من الدول وبين ما نطمح إليه من بذل الجهد فى تعليم الكبار خاصة تلك الدول التى تقصر إمكاناتها المالية عن القيام بما تتطلبه هذه الجهود من صور انفاق . لكن الإسلام عقيدة وحضارة يقدم لنا سبلا هامة يمكن بها مواجهة هذه المشكلة بحيث لا تستطيع تكثير الجهود المبذولة لتعليم الكبار دون التقيد بالقدرات المالية للدولة.

فمن الأحاديث النبوية المعروفة ، قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ".

ويؤكد كثير من المحللين أن التعليم مصرف من المصارف التى ينفق عليها مال المسلم كصدقة جارية وخاصة إذا جاء ذلك من خلال " مشروع " ،ذلك أن الصدقة الموجهة على سبيل الإحسان الفردى ، نفعها يقتصر على من يتلقاها ، ويكون مفعولها موقوتا كذلك ، أما الإنفاق على شئون التعليم عن طريق (مشروع) فهذا من شأنه أن يجعل الإنفاق " مستمرا " و "عاما".

من أجل هذا اندفع كثير من الأغنياء إلى وقف جزء غير قليل من أموالهم الثابتة والمنقولة على مشروعات تعليمية كإنشاء المدارس ، مما وفر لها مصدرا دائما للتمويل . وفى تصورنا أن هذه التجرّبة يمكن أن تدرس ليستفاد منها فى توفير مصادر تمويل لجهود تعليم الكبار .

خاتمـــة

وهكذا رأينا كيف أن التغير الحضارى سنة من سنن الله فى خلقه يحتم العمل وفقها أن تشحذ طاقات المجتمع وقدرات الإنسان كى تميل مجموعة كبيرة من أفراده (الكبار) ممن لم تتح لهم فرص التعليم من قبل ، أو تكون قد أتيحت بدرجة غير كافية ، تحيلهم من (كم) يستهلك إلى (نوع) يضيف ويتيح بكفاءة واقتدار ، بجانب استهلاكه .

وإن الإسلام باعتباره الرسالة الخاتمة ، وباعتبار صلاحيته لكل زمان ومكان ، كان من الطبيعى أن يترك مساحة كبيرة للاجتهاد والتغيير من أجل الملاءمة للظروف المتبدلة .

وإن تعليم الكبار (فريضة اسلامية) تتيح لهذا النفر الهام من أفراد الأمة أن يقوم بمهمة التكليف التى من شأنها أن تجعل الإنسان جديرا بخلافة الله على الأرض بتجديدها وتعميرها وتنميتها .

هوامش ومراجع

١- محمد جواد رضا : العرب والتربية والحضارة ، دراسة فى الفكر التربوى المقارن ، الكويت، مكتبة المنهل ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٣-١٤

٢- الزمخشرى : أبو القاسم محمود بن عمر : أساس البلاغة ، القاهرة ، مطبعة محمد نديم ، ١٩٥٣ ، ج٢، ص ١٣١.

٣- المرجع السابق : ج ٣ ، ص ١٢١.

٤- محيى الدين صابر : التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، سرس الليان (مصر) ، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، ١٩٦٢ ، ص ٤٧.

٥- الفيروز ابادى ، مجد الدين يعقوب الشيرازى : القاموس المحيط (القاهرة ، مطبعة بولاق) ١٢٨٩هـ ، ج٤ ، ص ٢٧٠.

٦- محيى الدين صابر ، التغير الاجتماعى وتنمية المجتمع ، ص ٤٩.

٧- سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ، القاهرة دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ١٧٣.

٨- المرجع السابق ، ص ١٧٤.

٩- المرجع السابق ، ص ١٧٥.

١٠- عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٥٨.

١١- المرجع السابق : الصفحة نفسها .

١٢- يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٩، ص ٢٠٥، عن : إغاثة اللهفان، ج١، ص ص ٣٤٦، ٣٤٩.

١٣- المرجع السابق، ص ٢١٦.

١٤- المرجع السابق ، ص ٢١٧.

١٥- محمد مبارك: النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة فى : منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامى: الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، الرياض، ١٩٨١، م١، ص ٢٥٦.

١٦- سعيد إسماعيل على: أصول التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٣، ص ٢٧.

١٧- محمد الغزالى: الإسلام والطاقات المعطلة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٤، ص ٢٤.

١٨- المرجع السابق ، ص ٣٠.

١٩- فهمى هويدى: أزمة الوعى الدينى، صنعاء، دار الحكمة اليمانية، ١٩٨٨، ص ٧٧.

٢٠- أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، د.ت، ج٣، ص ٢٣٨.

٢١- المرجع السابق: ص ص ٢٤٢-٢٤٤.

٢٢- فهمى هويدى: أزمة الوعى الدينى، ص ٧٩.

٢٣- محمد البهى: منهج القرآن فى تطوير المجتمع، القاهرةن مكتبة وهبة، ١٩٧٩، ص٩.

٢٤- المرجع السابق، ص ١٠.

٢٥- سعيد إسماعيل على: الأصول الإسلامية للتربية ، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٢، ص ١٥١.

٢٦- محمد محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم (بدون ناشر أو مطبعة أو تاريخ)، ط٢، ص ٧٢.

٢٧- المرجع السابق: ص ٧٤.

٢٨- سعيد إسماعيل على: رؤية إسلامية لقضايا تربوية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٣، ص١٠٨.

٢٩- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، الهيئة المصرية العام للكتاب، ج٤، ص٥.

٣٠- سعيد إسماعيل على: الأبعاد التربوية للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى مجلة : منار الإسلام، أبو ظبى، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف، العدد الثامن، السنة العاشرة، مايو ١٩٨٥، ص ٧٤.

٣١- فهمى هويدى: أزمة الوعى الدينى ، ص ٣٦.

٣٢- محمد سعيد رمضان البوطى: السلفية : مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامى، دمشق، ص ٢٢٢.

٣٣- فهمى هويدى: القرآن والسلطان، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢، ص ٤٣.

٣٤- المرجع السابق: ص٤٤.

٣٥- محمد مصطفى المراغى: الاجتهاد فى الإسلام، القاهرة، المكتب الفنى للنشر، ١٩٥٩، ص ٣١.

٣٦- فهمى هويدى: القرآن والسلطان، ص ٢٣١.

٣٧- المرجع السابق، ص ٢٣٢.

٣٨- محمد عمارة: الإسلام وقضايا العصر، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٠، ص ١٥٠.

٣٩- المرجع السابق، ص ١٥١.

٤٠- محمود قمبر: دراسات تراثية فى التربية الإسلامية، الدوحة، دار الثقافة، ١٩٩٢، م٣، ص ٢١٩.

٤١- سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٦، ص ١٥٨.

٤٢- محمد أسعد أطلس: التربية والتعليم فى الإسلام، بيروت، دارالعلم للملايينى، ١٩٥٧، ص ٦٨.

٤٣- أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨، ص ٦٣.

٤٤- محمود قمبر: دراسات تراثية، م٣، ص ٢٢٢.

٤٥- المرجع السابق، الصفحة نفسها .

٤٦- عبد الفتاح جلال: دور المسجد الجامع فى تعليم الكبار فى المجتمع المعاصر . فى المسجد وتعليم الكبار فى المجتمع المعاصر، سرس الليان، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى الوطن العبى، ١٩٧٨، ص ١٢.

٤٧- حسين مؤنس: المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٣٧)، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨١، ص٣٧.

٤٨- محمد جواد رضا : العرب والتربية والحضارة، مرجع سابق، ص ١٧٠.

٤٩- المرجع السابق، ص ١٧٢.

٥٠- عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٠، ص ١٢٠.

٥١- محمد إبراهيم الشافعى: المسئولية والجزاء فى القرآن الكريم، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٨٢، ص ٢٢.

٥٢- فهمى هويدى ، حتى لا تكون فتنة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ٣٤٠.

٥٣- المرجع السابق، ص٤١.

٥٤- المرجع السابق، ص ٤٢.

٥٥- محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان، سلسلة عالم المعرفة (٨٩) المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٥، ص ٧٠.

٥٦- المرجع السابق مح ، ص ٧٣.

٥٧- فهمى هويدى : حتى لا تكون فتنة، ص٢٠.

٥٨- محمد الغزالى: خلق المسلم، القاهرة، دارالكتب الحديثة، ١٩٧٤، ص ٢٢١.

٥٩- محمد عمارة: الإسلام وقضايا العصر، ص ٢٥.

٦٠- فهمى هويدى: حتى لا تكون فتنة، ص ٧٧.

٦١- محمد الغزالى: الإسلام والطاقات المعطلة، ص ١٢٣.